

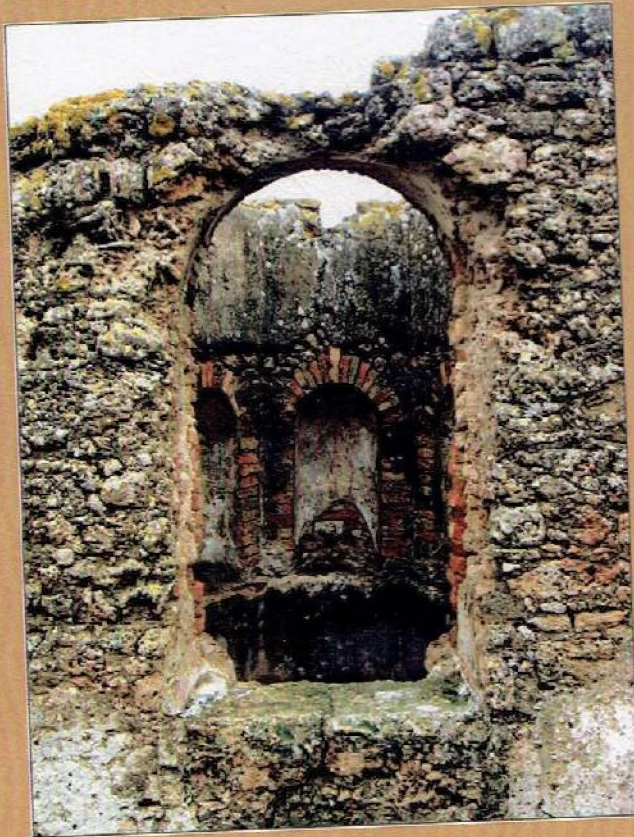
مسلك التاريخ والحضارة
وحدة: التاريخ الجهوي، الفصل الخامس



جامعة ابن توفيل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
القنيطرة

سلسلة المحاضرات :
17/14

المعالم التاريخية والأثرية بمنطقة الغرب. توظيف التراث في التنمية الجهوية.



السنة الجامعية
2017 - 2018

د. سعيد البوزيدي

المعالم التاريخية والأثرية بمنطقة الغرب، توظيف التراث في التنمية الجهوية.

مقدمة

المحور الأول : منطقة الغرب، المَعطيات الجغرافية والبشرية

- 1 - منطقة الغرب : الخصوصيات الجغرافية والمؤهلات الطبيعية
- 2 - المجالات الرطبة وواد سبويوس : الشريان الرئيسي لمنطقة الغرب
- 3 - أهمية المجال الغابوي بمنطقة الغرب

المحور الثاني : الغرب، منطقة جذب واستقرار بشري منذ الفترة القديمة.

- 1- الاستقرار البشري خلال الفترة القديمة
- 2 - نزوح القبائل العربية إلى منطقة الغرب
- 3 -توافد القبائل الجنوبية والجبيلية نحو منطقة الغرب

المحور الثالث : المواقع الأثرية القديمة بمنطقة الغرب

- 1- المراكز الحضرية
- 2- المراكز العسكرية
- 3- موقع جيلدا أو ريغة : Rhira : عاصمة المملكة المورية ؟

المحور الرابع : منطقة الغرب خلال الفترة الوسيطية

- 1- مدينة البصرة : عاصمة الأدارسة في منطقة الغرب
- 2- حد كورت : الحد الفصل بين الغرب والمناطق الجبلية
- 3 - مولاي بوسلهام وتمركز ظاهرة الأولياء والصلحاء بمنطقة الغرب

المحور الخامس : المواقع الأثرية والتاريخية خلال الفترة الحديثة بمنطقة الغرب

- 1 - موقع المعمورة وقصبة المهديّة
- 2 - موقع مشرع الرملة : حاضنة جيش البخاري
- 3 - القصبات السلطانية، من خدمة المخزن إلى تسهيل مأمورية انسياب الجيش الفرنسي

المحور السادس : المواضع التاريخية الكولونيلية خلال الفترة المعاصرة بمنطقة الغرب

- 1- الضيعات الفلاحية : تراث عمراني قروي بمنطقة الغرب
- 2 - المنشآت الاقتصادية : بور البوطي، الميناء الذي أفرغ مدينة القنيطرة
- 3- المراكز الحضرية بمنطقة الغرب خلال الفترة المعاصرة

المحور السابع : التنمية الجهوية بمنطقة الغرب والموروث التاريخي والثقافي.

- 1 - المواقع التاريخية والأثرية : تراث حضاري "غرباوي"
- 2 - الجامعة وتأهيل السياحة العلمية والثقافية
- 3 - التراث الثقافي والتربية على المواطنة الجهوية

خاتمة

بيبلوغرافيا

إلى حد قريب، ظلت منطقة الغرب غابة في المقررات الدراسية والجامعية، وكانت الصورة النمطية التي تُقدم عنها، أنها منطقة فلاحية بامتياز ذات طابع بدوي، وأن تاريخها مرتبط بالمناطق والحواضر المجاورة لها. ومع إحداث الجامعة بالمنطقة بدأت الاهتمامات بهذه المنطقة الفلاحية بامتياز، وتولت الدراسات وتنوعت في كل الأقطاب، وظهرت اجتهادات ودراسات لباحثين من الغرب ترفع صوتهما للتعريف بالمواقع التاريخية والأثرية التي تزخر بها منطقة الغرب. واعتماد النظم الجديد في الجامعة وإحداث التاريخ الجهوي تم تسطير وحدات دراسية تخص المواقع التاريخية والأثرية بمنطقة الغرب. أبانت السنوات الأولى من تطبيق المقررات الجهوية أن الطالب الغرباوي يجعل الكثير عن المواقع التاريخية والأثرية التي يسكن بجوارها وأن فرصة دخوله إلى الجامعة وإطلاعه على هذا الموروث التاريخي قوت من عزيمته العلمية فأصبح يطالب الاشتغال في بحوثه الجامعية على المواقع والأحداث التاريخية التي تجعله يرتبط أكثر بالمنطقة أو الجهة التي ينحدر منها. وهناك من الطلبة من تبنى مشروع التعريف بالمواقع التاريخية والأثرية القريبة منه واتخذها مطية لتحقيق مشاريع تنموية محلية من قبيل خلق جمعيات وإحداث منتديات ثقافية وعلمية وتقديم خدمات سياحية ثقافية.

كان من توالي المجهودات أن أصبحت المواقع التاريخية والأثرية بمنطقة الغرب إحدى الرافعات التي انتبه إليها المسؤولين عن الشأن المحلي، فبدأ الطلب على المونوغرافيات وتاريخ الجهة. وكان لظاهرة المهرجانات الثقافية التي تعرفها المنطقة دور في اهتمام المنتخبين بالمواقع التاريخية والأثرية لمنطقة الغرب. كما أن البحث عن سبل تعزيز التنمية المحلية ساهم في توظيف الموروث الثقافي والتاريخي من أجل محاولة خلق قطب تنموي يرتكز على جعل هذه المواقع أساس مبادرات التنمية الجهوية.

وبقي على "الغرباوي" أن يعي بأهمية هذا الموروث سواء أكان طبيعياً أو تاريخياً، أكان في القرى أو في الحواضر لأنه هو المعني الأول به. لئلا ستعمل هذه السلسلة من المقالات إلى تديم مجموعة من بطائق عن أهم المواقع التاريخية والمخلفات الأثرية والشخصيات الغرباوية من أجل التعريف بها وكذا دعوة المسؤولين والراغبين في الاستثمار إلى تعزيز الاهتمام بهذه الثروة التي لا تزال بكراً بمنطقة الغرب، إذ يكفي الإشارة إلى أن منطقة الغرب تحتضن أكثر المواقع الأثرية بالمغرب. ويبقى على الجامعيين والمسؤولين بلورة مشاريع تنموية تروم إحداث مقاولات مدرة للدخل تسعف في خلق فرص الشغل وكذا الحفاظ على الموروث التاريخي الذي تزخر به منطقة الغرب.

المحور الأول : منطقة الغرب، المُعطيات الجغرافية والبشرية

تنفرد منطقة الغرب، أو "الأزغار" بموقع جغرافي فريد على الواجهة الأطلسية. وهي تستفيد بما تجود عليها به كل من جبال الأطلس المتوسط والريف الغربي، مما يجعلها منطقة جذب واستقطاب واستقرار. كان لهذه الخصائص الجغرافية أن أثارت الانتباه إليها منذ الفترة القديمة حيث تحدثت عنها مختلف الرحلات الجغرافية، الغربية منها والشرقية، والتي وصلت إلى الشواطئ الغربية للمحيط الأطلسي. ومما زاد من أهميتها كونها منطقة جريان نهر "سببوس العظيم" الذي يعتبر، بحق، الشريان الرئيسي لهذه المنطقة. كان لهذه الخصائص الجغرافية أن أصبحت المنطقة مُنتجع القبائل المتنقلة إليها خلال فصل الصيف لما توفره من أمانية الرعي.

1 - منطقة الغرب : الخصائص الجغرافية والمؤهلات الطبيعية

تتوفر جهة الغرب الشراردة بني احسن على موقع استراتيجي مهم حيث يرتبط ترابها بالمدن المحورية الكبرى للمملكة. وتشكل بذلك حلقة وصل قوية بالنسبة لمحورين أساسيين : أولهما محور طنجة-أكادير مروراً بالرباط والدار البيضاء، وثانيهما محور الرباط-وجدة مروراً بمكناس وفاس. أما عاصمتها القنيطرة، فتوجد قريبة جداً من الأقطاب الحضريّة المهمة في المملكة حيث لا تبعد كثيراً عن العاصمة الإدارية الرباط، وعن العاصمة الاقتصادية الدار البيضاء، وعن القطب العلمي والسياحي فاس-مكناس.

و"الغرب" هي تسمية جغرافية تدل على القسم الغربي من الواجهة الأطلسية لبلاد المغرب الأقصى. تنحصر المنطقة بين تلال مقدمة الريف وسفوح الأطلس المتوسط شرقاً ومنطقة لكسوس شمالاً وجهة زعير جنوباً والمحيط الأطلسي غرباً. عرفت في التاريخ ب"أزغار" كما وصفها الحسن الوزان في بداية القرن السادس عشر، الذي جعله : "يمتد على طول ثمانين ميلاً وفي عرض ستين ميلاً، ويخترقه نهر سبو في وسطه". و"أزغار" تعني الأرض المنبسطة المنتشرة بالمياه في قدم الجبال. وهي كلمة أمازيغية صنهاجية مصمودية، كثيرة الاستعمال عند أنصاف الرحل من سكان الجبال، خاصة جبال الأطلس المتوسط، لأنهم كانوا ينزلون إلى الأزغار في فصل الشتاء.

تمتد منطقة الغرب من تلال مقدمة الريف شمالاً وتلال للازهر في الشمال الغربي إلى هضبة المعمورة في الجنوب، وتحدها غرباً أشربة كنيبية، أما شرقاً فتحدها تجاعيد مقدمة الريف. وتتكون المنطقة من وحدات طبوغرافية متنوعة يمكن التمييز فيها بين الهضاب مثل المعمورة ثم تلال مقدمة الريف وأخيراً الوحدة السهلية الأطلسية. تصل ارتفاعات التلال إلى 810 م بجبل سلفات، وتتراوح بين 100 م و 500 م في باقي الوحدات. وتتراوح ارتفاعاتها الهضاب ما بين 80 م. و 100 م.، وهي تتدرج على التوالي بين هضبة المعمورة ودار العامري ثم الهضبة الواقعة شمال للازهر. أما بالنسبة للوحدة السهلية المتميزة فتتراوح الارتفاعات فيها ما بين 98 م.، قرب المرجة الزرقاء و 74 م.، قرب مصب واد سبو. تبقى أخيراً الوحدة السهلية المنخفضة حيث الارتفاعات فيها لا تتعدى 3 م. وقد تنزل إلى 4 م. قرب مصب واد سبو. ينتج عن تنوع هذه الوحدات الطبوغرافية تكوين ضايات ومرجات في المستويات السفلى مثل ضاية سيدي بوعزة والمرجة الزرقاء، ومرجة بلمنصور.

تتكون بنية هذه الوحدات الطبوغرافية من تكوينات وصخور متباينة، تتشكل من التلال والهضاب ثم المجالات السهلية. وتنتشر على طول واد سبو تكوينات الدهس الناتجة عن المواد المنقولة خلال فترة الفيضانات، وكلما ابتعدنا عن المجرى إلا وظهرت أترية الترس. أما المناطق الساحلية فأثرتها ضعيفة التطور تغلب عليها التكوينات الرملية.

2- المجالات الرطبة وواد سببوس : الشريان الرئيسي لمنطقة الغرب

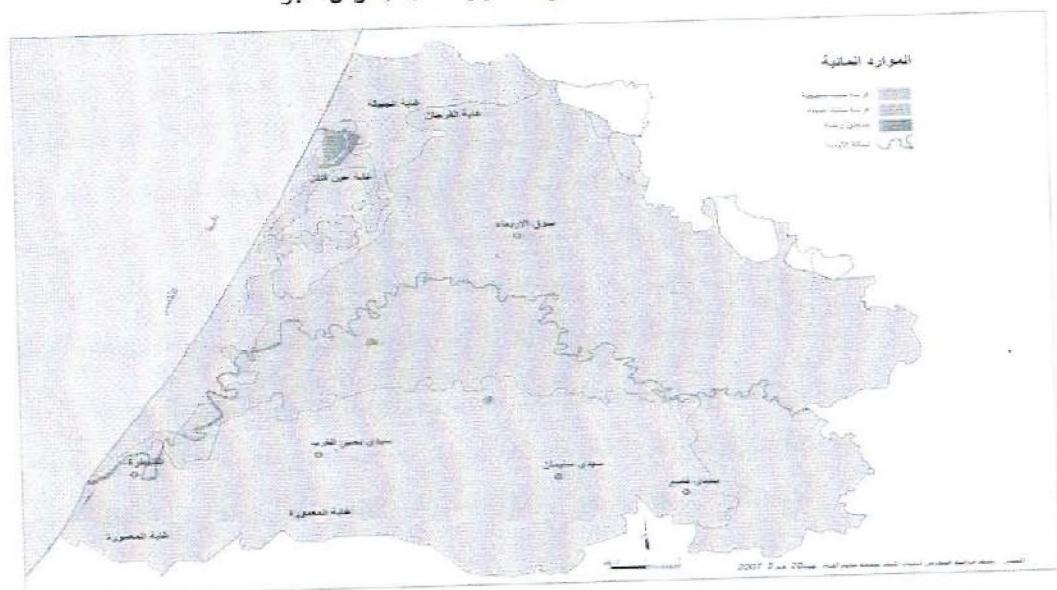
تتميز منطقة الغرب بمناخ رطب متوسطي مع تأثيرات محيطية واضحة، فمتوسط درجات الحرارة يتراوح بين 11° و 27°، لكن يبقى المدى الحراري جد مرتفع في المناطق الداخلية كسيدي سليمان وسيدي قاسم وعلى طول وادي سبو حيث تسجل درجات الحرارة القصوى خلال فصل الصيف والتي قد تتجاوز أحيانا 45°، أما درجات الحرارة الدنيا فتتزلزل إلى أقل من صفر درجة في المناطق الجنوبية الشرقية من المنطقة.

وتعتبر التساقطات من العناصر المناخية المحددة للحياة الاجتماعية للسكان ولعمليات الإنتاج. فالغرب يستقبل كميات من الأمطار تتراوح بين 400 و 600 ملم. وتعرف هذه الأمطار توزيعا غير منتظم سواء على المستوى السنوي أو الفصلي، فمعظم الأمطار تسجل عادة بين نهاية فصل الخريف وبداية فصل الشتاء ويمكن لمس هذا التناقض الحاصل في الكميات المطرية وفي درجات الحرارة بالتدرج في الغطاءات النباتية والعناصر البيومناخية الأخرى بمختلف مناطق الغرب.

تتوفر الجبهة على ثروة مائية غنية حيث تجاوزت المياه السطحية 4.8 مليار متر مكعب، والمياه الجوفية 960 مليون متر مكعب، كما يتوفر تراثها على وديان وأنهار كبيرة وروافد وقنوات أرضية طبيعية لصرف المياه. إلى جانب المياه السطحية، تتوفر الجبهة على قرشة مائية جوفية من أغني القرشات في البلاد (قرشة مائية مدالة) حيث تتجاوز مساحتها بالنسبة لقرشة المعمورة 390 كلم مربع وعمقها 30 متر وقرشة الغرب 4000 كلم مربع.

ينطلق واد سبو من الأطلس المتوسط ويصب بالمهيدة على الواحية الأطلسية على طول 614 كلم . تصل كمية تدفق مياهه إلى 137 م³/ث. ومساحة مائه المسطحة تبلغ 40000 كلم². وبذلك، فهو من أكبر أنهار شمال إفريقيا وأدومها جرياناً. لا تتوفر على مرجعية تاريخية لأصل تسمية نهر "سبو" الشريان الرئيسي لمنطقة الغرب. وتُرجع بعض الاجتهادات أن التسمية هي من أصل أمازيغي. وكانت أول إشارة إلى هذا النهر في المصادر التاريخية القديمة التي تتحدث عن "سبويوس" و"سبوي". وتذكره المصادر التاريخية العربية باسم "سبو" دون الإحالة عن أصول التسمية. تقدم بعض الدراسات الأونوماستية تفسيراً جغرافياً لهذه التسمية مفادها أن سبو لفظ مُشتق من "ساسبو" التي تعني الأداة التي تخترق الجواز. في غياب أي سند تاريخي لا يسعنا إلا أن نقبل بهذا التفسير الذي يصف النهر الذي ينبع من الأطلس المتوسط ويتغذى بروافد من جبال الريف الغربية قبل أن يقترب بواد بهت في "المكرن".

خريطة الموارد المائية بحوض سبو



ينبع واد سبو من جهة الأطلس الكبير من بني مكيلد حيث يتكون "واد كيكو" الذي تغذيه العديد من الشعاب والضايات. يعبر "واد كيكو" أيت يوسي ثم أيت سرغ روشن وتصبح تسميته "واد مدز" الذي تغذيه، هو الآخر، مجموعة من الوديان منها واد معاصر، واد المرس ومجموعة من الشعاب. وبعد وصوله إلى بني وارين (المزّل) يصبح اسمه "نهر سبو" حيث يتغذى. هو الآخر من مجموعة من الشعاب والضايات من بينها ضاية مسكر وضاية عوة. ولما يصل إلى منطقة الحياينة يرتفع صبيبها خصوصا بعد إلتقائه بواد إناون. وكلما اتجه واد سبو نحو السافلة ارتفعت الشعاب بقرية با محمد بمنطقة شراكة قبل أن يلتقي بواد ورغة. وعند وصوله إلى شراردة، يتغذى من واد مكس بمنطقة زرهون ومن واد اسريا بمنطقة مولاي ادريس. ويستمر وادي سبو بشكل ملتو إلى أن يصل إلى منطقة بني حسن حيث يلتقي بأحد أهم الروافد الكبرى لسبو وهو بهت.

تناولت مختلف المصادر التاريخية واد سبو منذ الفترة القديمة إلى الفترة المعاصرة. وتحدثت المصادر التاريخية القديمة أنه على مقربة من مستوطنة بناسا ومعسكر تاموسيدا في منطقة الغرب يجري نهر سبويوس الذي يقول عنه بلينيوس الشيخ إنه "نهر رائع وصالح للملاحة". وخلال القرن الخامس ق. م. قام الأميرال القرطاجي حانون بتأسيس مدينة تيمياتيريا عند مدخل الوادي، قبل التغلغل عبر نهر سبو نحو الأراضي الداخلية إلى أن وصل جزيرة كرني. ويرى الباحث في التاريخ القديم أن نهر سبو شكل في بداية العهد الإمبراطوري حدود التوسع الروماني في موريطانيا الغربية، حيث كان بمثابة "الليمس" الطبيعي للمناطق الخاضعة للسيطرة الروماني.

وخلال الفترة الوسيطية قدم حسن الوزان وصفا لنهر سبو ضمن باقي الأنهار الكبرى بالمغرب إلى جانب أم الربيع و ورغة و ملوية و درعة. وجعل منه مسريا مائيا للوصول إلى فاس بعد اختراقه للسهول الداخلية. وخلال الفترة الحديثة تناول ابن أبي زرع الفاسي في كتابه "الانيس المطرب القرطاس في اخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس" واد سبو حيث وطن العديد من المدن على ضفافه وذكر مجموعة من الوقائع والأحداث التاريخية التي عرفتها المناطق المجاورة لهذا الواد. كما تطرق له صاحب كتاب تاريخ الضعيف وكذا كتاب " كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق " للشريف الادريسي . وازداد ذكر واد سبو في المصادر التاريخية خلال الفترة المعاصرة إلى جانب ذكر واد بوفكران وواد إيناون وواد بهت وواد ورغة، خصوصا مع تزايد الرحلات الاستكشافية الفرنسية التي كانت تروم إلى التعرف على المغرب العميق. وقد كان واد سبو من بين أهم اهتمامات هذه الرحلات التي اتخذت منه طريقا مائيا للوصول إلى فاس والتعرف عن القبايل المغربية الداخلية.

يتبين أن واد سبو له فضل كبير على منطقة الغرب، فإلى جانب تغذيتها بالرواسب وزمها بالمياه، فقد شكل مسريا مائيا نحو الأراضي الداخلية ومكنها من الارتباط بالمحيط الأطلسي عبر مصب واسع أسعف ربط المناطق الداخلية بالسواحل الأطلسية.

3 - أهمية المجال الغابوي بمنطقة الغرب

يتوفر تراب الجهة على غطاء غابوي شاسع حيث تبلغ مساحة الغابة الطبيعية أزيد من 45974 هكتار حيث تمثل هذه المساحة نسبة 10 بالمائة من المساحة الغابوية الطبيعية في مجموع التراب الوطني، أما الغابة المزروعة فتتجاوز مساحتها 95898 هكتارا. وتعتبر هذه الغابات بشقها الطبيعي والمزروع ثروة جهوية كبيرة لا زال مستوى استغلالها في الأنشطة الاقتصادية والأنشطة المدرة للدخل ضعيفا (تربية المواشي، السياحة، تربية النحل، جني وتصنيع "الترفاس" والبلوط والفلين...). كما تم تسجيل تعرض هذه الثروة الغابوية للانقراض والاجتثاث بسبب عدم وجود استراتيجية حكومية مندمجة لعقلنة استغلالها.

تتميز غابة المعمورة بتنوع غطائها النباتي وهي تتكون من أربعة تشكيلات نباتية رئيسية وهي :

1- شجر البلوط الفليني على رأس قائمة الأصناف النباتية الطبيعية ليحتل بذلك مساحة تقدر ب 66.900 هكتارا تتوزع بين إقليم القنيطرة الممثلة في غابة المعمورة ب 38.000 هكتارا، وهضاب الحادش وعرباوة في الشمال بحكم ملائمة غابة الفلين والظروف التضاريسية والطبيعية الأخرى.

2 - الغابة السفلى من العرعار الأحمر التي تنتشر فوق الكثبان الحديثة والقديمة

3 - أشجار البطم والزيتون البري التي تنتشر في المرتفعات وبالقرب من مجاري الأودية

4 - أشجار الصنوبريات التي تغطي مساحة تصل إلى 5800 هكتارا تتوزع بين إقليمي القنيطرة وسيدي قاسم ثم نجد المركب النباتي المرتبط بعمليات التشجير والمكون من غابات الأوكالبتوس والصنوبريات والأكاسيا والذي يهتم بالخصوص البومش الشمالية لغابة المعمورة بين سيدي يحيى الغرب وسيدي سليمان وفوق هضاب عرباوة والحادش في الشمال وبعض البقع المتناثرة بينما في المنطقة الساحلية والمرجات تنتشر النباتات الملحية والرطاما عند الجزء الممتد بين الغرب الأعلى وسوق الأربعاء الغرب إلى جرف الملحة.

وعموما فإن غابة المعمورة تتكون من مراعي ذات جودة عالية بسبب تنوع نباتاتها واتساع مراعيها وتنوع اشجارها بين العالية والقصيرة والفسيحة والمتداخلة، مما يجعلها مرتعا لتربية الماشية، بيد أن هذا الغطاء النباتي يعرف تدهورا في النمو والتطور والاستمرارية نتيجة العامل السوسيو-اقتصادي المرتبط بالضغط الديمغرافي عن طريق الاجتثاث قصد توسيع المجالات الزراعية أو قصد تسويق الخشب والاستعمالات المنزلية، أو عن طريق الرعي الجائر مما يحد من إعادة النمو الطبيعي للأصناف النباتية.

تتوفر المنطقة على مؤهلات طبيعية متنوعة ومهمة، سواء على مستوى التربة التي تشكل أرضية لانتشار مجموعة من الزراعات، أو على المستوى المائي يلخصها تعدد المحاور المائية والسدود التي تسمح بحقينة مائية تساهم بشكل فعال في توسيع القطاعات المسقية داخل السهل. هذه العوامل المتداخلة فيما بينها أهلت منطقة الغرب غلاليا لتتطور إلى جانبه صناعات غذائية مهمة، مما جعلها تحتل المكانة اللائقة بها ضمن الاقتصاد الوطني العام.

شجر البلوط بغابة المعمورة



المحور الثاني : الغرب، منطقة جذب واستقرار بشري منذ الفترة القديمة.

استقبلت منطقة الغرب موجات بشرية منذ العصور القديمة، وشكلت المؤهلات التي تزخر بها حافزاً شجع على الاستقرار. وتفيد دراسة القبائل أن المنطقة كانت عبارة عن مُنتجع لتحركات القبائل المورية، خلال فصل الصيف. وعمدت السلطات الرومانية إلى زرع مستوطنات بها ثم فرض سياسة الاستقرار على القبائل النازحة من الأراضي الداخلية. كما احتضنت أكبر موجات قبلية حيث قدمت إليها قبائل مورية من المناطق الجنوبية والشرقية ووطنها السلطات الرومانية بالقرب من مستوطنة بابا ومستوطنة بناصا وبجوار المعسكر تاموسيدا.

1 - الاستقرار البشري خلال الفترة القديمة

ساهمت الظروف طبيعية في توالي الاستقرار البشري بمنطقة الغرب منذ الفترة القديمة؛ إذ تؤكد الدراسات التاريخية أن المنطقة كانت موطن قبليتي البنيوريين و الزكرنسيين اللتين استقرتا بالقرب من مستوطنة بناصا ومعسكر تموسيدا. ونظرا لرغبة الرومان في استمالة قبيلة الزكرنسيين وجعلها موالية لهم، فقد منحوا زعيمها المواطن الرومانية مع الاحتفاظ بكامل حقوقه داخل قبيلته، وذلك حتى يؤثر عليها ويجعلها تسير في فلك الرومان. ويرى الباحث مصطفى أوعشي أنه من غير المستبعد أن يكون اسم الزيكريسي مستمداً من الكلمة الأمازيغية "أزكر" التي تعني البقر أو البقرات بصورة عامة. فإذا كان اسم القبيلة بالفعل موافقا لهذا الافتراض، فهذا يعني أننا أمام قبيلة مورية كانت تعتمد في نمط عيشها على تربية الأبقار، كما أنه من المرجح أيضاً أن يكون اسم القبيلة مشتقاً من "أزغار" الذي يعني مجال الانتجاع في السهل خلال فصل الشتاء.

2 - نزوح القبائل العربية إلى منطقة الغرب

ويعود استقبال منطقة الغرب للقبائل العربية إلى أواخر القرن 6 هـ / 12 م والذي استمر إلى أواخر القرن 13 هـ / 19 م وبداية القرن 14 هـ / 20 م . وبالتالي، فإن استقرارهم النهائي في المنطقة يعود إلى العصر الحديث حيث بدأت تظهر مكونات خريطة توزيع القبائل الغربية على النحو التالي: "يفصل نهر الدردار بين الخلط وطلليق في الشمال، و سفيان وبني مالك في الجنوب. كما أن نفس النهر يفصل بين سفيان وبني مالك في الشمال، والشراردة وبني احسن في الجنوب. ويعتبر ضريح محمد كدار حداً فاصلاً بين الشراردة شرقاً وبني احسن غرباً. ورغم أن هذه القبائل اتخذت لها أماكن استقرار ومجالات تنقل محددة جغرافياً، إلا أننا نلاحظ بعض التداخل فيما بينها ؛ بحيث نجد دواوير خلطية في بلاد سفيان وبني مالك، بحيث إن منطقة الغرب تتكون من وحدات، وكل وحدة تضم بعض العناصر التي تنتمي لهذه القبيلة أو تلك " .

كشف الأستاذ المصطفى البوعناني في دراسته حول قبائل الغرب أن ساكنة المنطقة عرفت توافداً عبر مراحل تاريخية، وأن فكرة "خلاء منطقة الغرب" من الساكنة، تستدعي إعادة النظر. فهو يذهب إلى طرح تزايد ساكنة منطقة الغرب منذ أواخر القرن 6 هـ / 12 م إلى أواخر القرن 13 هـ / 19 م. وكانت قبيلة رباح، وهي أولى القبائل العربية التي استقرت بالمنطقة، وكان عدد أفرادها أكثر من عدد أية قبيلة عربية أخرى بما فيها قبيلة الخلط، التي كان يقدر عدد أفرادها، آنذاك، بحوالي 200.000 نسمة. وحافظت المنطقة على نفس عدد السكان تقريباً، طيلة القرن 7 هـ / 13 م إلى بداية القرن 8 هـ / 14 م، بالرغم من الحملة العسكرية التي قام بها السلطان المريني أبو ثابت سنة 707 هـ / 1308 م ضد قبيلة رباح . لم يدم هذا الانخفاض طويلاً، لأن نفس الخليفة أعطى أوامره بالبداية في تهجير خلط تامسنا إلى منطقة الغرب قصد إعادة تعميره بعد إبادة لقبيلة رباح.

3 - توافد القبائل الجنوبية والجبليّة نحو منطقة الغرب

عرفت المنطقة، تراجعاً في عدد السكان ابتداء من مطلع القرن 9هـ/15م بسبب الحروب التي قام بها أبو سعيد عثمان المرنيني (800هـ/1398م - 823هـ/1420م) ضد منافسه في الحكم. وقد ترك الوزن ومارمول أوصافاً معبرة على مدى التخريب والإتلاف الذي حصل للقرى والأراضي الزراعية بسبب تلك الحروب، زيادة على ما تلاها من مجاعات وأمراض. وانطلاقاً من منتصف القرن 9هـ/15م إلى منتصف القرن 10هـ/16م سيحدث تغيير جذري في عملية تعمير منطقة الغرب بإدخال عناصر أخرى بأعداد مهمة جداً من الخلط وسفيان وبني مالك على الخصوص، ثم كنانة والعمارنة وأولاد حسين، التي كانت تجند ما لا يقل عن 139.000 من القوات فرساناً ومشاة. وإذا أضفنا إليهم، في بداية القرن 12هـ/18م، حوالي 70.000 من قوات عبيد البخاري في مشرع الرملة، ويصل بذلك العدد إلى ما لا يقل عن 209.000 محارب، و ما لا يقل عن 10.000 فارس من بني احسن، وفي منتصف القرن 12هـ/18م، سيصل مجموع المحاربين إلى ما لا يقل عن 222.000.

وحسب المصطفى البوعناني، فإذا اعتبرنا أن عدد سكان المنطقة، خلال القرن 10هـ/16م، ظل ثابتاً على الأقل، وانضاف إليه في مطلع القرن 12هـ/18م، عدد 222.000 محارب، يكون عدد سكان منطقة الغرب قد تطور خلال القرون الثلاثة 10-11-12هـ/16-17-18م على الشكل التالي : من 522.250 خلال القرن 16م إلى 780.750 خلال القرن 17م ليصل إلى 820.550 خلال القرن 18م. لقد أصبحت المنطقة، انطلاقاً من العهد السعودي، خزاناً بشرياً يمد الجهات القريبة منها بأعداد مهمة من السكان، كالخلط ومعهم سفيان وبني مالك حيث اتسع مجال انتشارهم من ساحل المحيط الأطلسي إلى أن دخل الكثير منهم فاس مثل عبيد البخاري وأطل البعض منهم على مدينة فاس.

وعرفت المنطقة تنامي استقرار وتحرك القبائل مع نهاية القرن 18م، وبداية القرن 19م، ويتبين هذا الأمر من خلال بروز مراكز عسكرية اتخذها المخزن كمحطات استراتيجية آمنة للتنقل بين أهم مدن وعواصم المملكة؛ إذ تم إحداث مجموعة من المحلات والتزالات العسكرية شكلت النواة الأساسية لبروز مراكز حضرية حديثة بمنطقة الغرب، ستلعب دور المستقطب للتجمعات البشرية، وخصوصاً على مشارف واد سبو، وبالقرب من السواحل الأطلسية.

إن ما يثير الانتباه، في التتبع التاريخي لتعمير منطقة الغرب هو التأكيد على أنها منطقة جذب لا منطقة الطرد والنزوح. وتأتي المعطيات التاريخية لتؤكد على أنه على طول الفترات التاريخية استقبلت المنطقة أفواجا من القبائل النازحة والمهاجرة والمتنقلة، مما جعلها تتغذى بشرياً وحضارياً.

نزوح القبائل العربية إلى منطقة الغرب خلال الفترة الوسيطية



المحور الثالث : المواقع الأثرية القديمة بمنطقة الغرب

1- المراكز الحضرية

تقع مدينة بناصا على الضفة اليسرى لنهر سبو، وهي تبعد بحوالي 17 كلم عن مدينة مشرع بلقاصيري وبحوالي 30 كلم عن المحيط الأطلسي. تعتبر إحدى المستوطنات الرومانية التي أقامها الإمبراطور الروماني أوكتافقيوس في موريطانيا الغربية. وقد ارتبط اسم هذه المدينة بضريح سيدي علي بوجنون.

لا نملك لحد الآن أي تأويل مقنع حول مدلول كلمة بناصا والمعنى الذي يفيدده الاسم، إلا أن أقدمية الموقع السابق عن الوجود الروماني تجعلنا نفترض أن يكون للاسم جذورا محلية. فقد ورد إسمها في العديد من المصادر القديمة ولو في إشارات محدودة، فقد حددها بلينيوس الشيخ على بعد خمس وسبعين ميلا من ليكسوس ووطنها بطليموس بين 7° - 30° و 20° - 34° . كما وترد ذكرها في الدليل الأنطوني، وعند الجغرافي رافينا بعد فريجيدي. إلا أنه سيختفي ذكرها في مصادر العصر الوسيط و مصادر الفترات اللاحقة، و كأن وجود هذه الحاضرة قد اقتصر في الزمان على فترة العصر القديم.

يميز الدارسون في تاريخ المدينة بين الفترة المورية والفترة الرومانية. فقد كان الاعتقاد السائد قبل منتصف القرن العشرين أن موقع بناصا لم يعرف استقرارا سابقا عن الوجود الروماني، غير أن عددا من الاستبارات أكدت عكس هذا الطرح. وتبقى لحد الآن معلوماتنا عن الفترة المورية منحصرة في نتائج الاستبارات التي عرفها الموقع خلال نهاية الخمسينات من القرن العشرين، ما بين سنة 1955 و 1956. كما أن نتائج البعثة المغربية الفرنسية قدمت معطيات تفيد أن تاريخ الاستقرار بالموقع من الممكن أن يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد. وتتخذ مستوطنة بناصا خلال المرحلة الرومانية وضعيتها الحالية أي شكلا طويلا من الشمال إلى الجنوب. حيث أن أغلب المباني متركزة على الواجهة الغربية للكارديو الرئيسي. ويظهر أن تخطيطها، بالنظر إلى شكله الحالي، مثله مثل غيره من المدن، إذ تنتظم بنايات بناصا في وحدات سكنية تتخذ أشكالا مستطيلة، محاطة في جوانبها الأربعة بشوارع متوازية ومتقاطعة.

تحتوي المدينة على المباني العمومية، والتي تتكون من الساحة العمومية (الفوروم) التي تعتبر قلبها النابض. وهي عبارة عن ساحة مستطيلة (38 م و 34 م كقاعدة وارتفاع 38 م) ومن خصوصياتها أنها أقل اتساعا في جهتها الشمالية الشرقية. ويستنتج من نظام الأبواب أنها كانت تقفل ليلا، وتبشترك في هذه الخاصية مع ساحة ويلي. وإلى جانب الساحة العمومية تحتوي بناصا على الكوربة Curie التي تتخذ شكلا مستطيلا وتعتبر مع البازيليك ملحقين يكملان الساحة العمومية (الفوروم). وهي عبارة عن قاعة مخصصة لاجتماعات المجلس البلدي. يمتد البازيليك على الواجهة الشمالية للفوروم، ويتخذ شكلا مستطيلا مساحته 941,06 م². تنفتح على شارع بواسطة فتحة واسعة، أرضيتها من بلاطات سميكة من الرخام الأبيض، أما الجدران فمن أحجار كبيرة تحيط بها ركائز. وتحتوي المدينة على معبد، لأن كل مدينة كانت توضع تحت حماية الآلهة لذا كان من اللازم توفير مقر لها، والذي يشترط فيه أن يوضع على نقطة مرتفعة، نظرا لكون الاعتقاد السائد هو أن حماية الإله لا تتم بطريقة محكمة إلا على المجال الذي يمكن رؤيته.

وتتميز بناصا بحماماتها التي تعود إلى فترات ضاربة في القدم. كشفت الحفريات عن أربع حمامات عمومية تتركز كلها في الجهة الغربية، إضافة إلى حمامات خصوصية بجانب الفوروم وأخرى في الحي الجنوبي. تتميز هذه الحمامات بتواضع مساحاتها. مقارنة مع حمامات بعض المدن الأخرى في موريطانية الطنجية وخاصة مدينة ويلي. إلى جانب المباني العمومية خلف موقع بناصا المباني الخصوصية ومنها : منازل ذات باحات معقدة وأخرى تتخذ أشكالا تختلف حسب المساحة.

2 - المراكز العسكرية

يوجد موقع تموسيدا الأثري شمال غرب مدينة القنيطرة على طريق طنجة بالقرب من ضريح سيدي علي بن أحمد. ورد ذكرها في المصادر القديمة، حيث وُظِنها بطليموس بين إحداثيات $34^{\circ}34' - 15^{\circ}$ أي شمال شرق سلا. وجعلها الدليل الأنطوني على الطريق التي تربط بين أدميركوربوس وتينكي. أما عند الجغرافي رافينا فقد ورد اسم المدينة ضمن المدن الواردة في الدليل الأنطوني. حيث نجد تموسيدا بعد سلا وقبل بناصا. وقد طابق شارل تيسو سنة 1874 بين بقايا سيدي علي بن أحمد مع موقع تموسيدا.

انتقلت المدينة من تجمع سكاني صغير في البداية لتصبح مدينة بمواصفات حقيقية مع القرن الميلادي الأول. وتؤكد نتائج الحفريات الأخيرة أن تاريخ الاستقرار يمكن أن يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد. وتوالت الحفريات بالموقع حيث أزلت التراب عن أربعة أبواب المعسكر والأربعة عشر برجاً في السور. وبينت الاستبارات التي أنجزت في الموقع منذ بداية الستينات من القرن العشرين على أن الموقع قد عرف استقراراً سابقاً عن وصول الرومان إلى الموقع شأن العديد من المواقع في هذا الإقليم الغربي.

حددت الحفريات فترتين أساسيتين في تاريخ المدينة : فقد كشفت الاستبارات عن وجود آثار بنايات تعود للفترة المورية أقيمت فوقها بنايات الفترة الرومانية، مما يوحي بأن تموسيدا وعلى غرار مدن موريطنية الطنجية، كانت بها بنايات قبل الفترة الرومانية. يتضح ذلك من خلال الاتجاه المخالف لهذه الآثار وتلك التي أقيمت فوقها والتي تعود للفترة الرومانية. إضافة إلى ذلك، كشفت الحفريات عن عدد من اللقى الفخارية من أواني وأقفورات، تعود للفترة نفسها.

أبانت الحفريات بتموسيدا عن وجود منازل متواضعة ومحترفات ومحلات من المحتمل أنها كانت في أحياء خاصة. كما تمت إزالة التراب عن بنايات أخرى منها معمل الكاروم، وعن منطقة صناعية تتوفر على عدد من الأفران. وبقايا المواقع القديمة فقد تم العثور في تموسيدا على بنايات ذات وظيفة دينية حيث تم العثور على أربعة معابد وهي : المعبد المربع، المعبد المحذب، المعبد ذي الثلاث مقصورات، المعبد الكبير ذو البوديوم. وأزلت الحفريات الأثرية التراب عن بقايا على طول الوادي، يمثلها جزء من السور والحمامات، عرفت بحمامات الوادي.

تعتبر تموسيدا من أكبر معسكرات موريطنية الطنجية، ويوجد المعسكر على الواجهة الغربية للمدينة. يتخذ شكلاً مستطيلاً مساحته 2.25 هكتار، تتوفر على أربعة أبواب، وأربعة عشر حصناً. أُرِخ لهذه المنشأة من خلال قطعة نقد بالقرن الميلادي الثالث. إلى جانب المعسكر خلفت تموسيدا البريطوار وهو جزء من النظام الدفاعي داخل المعسكر، يوجد عند ملتقى المحورين الرئيسيين في المعسكر. يحيط بالمعسكر السور الدفاعي طوله حوالي 1600 م. ويتوفر على عدد من الأبراج أنصاف دائرية وحصن دائري في الجهة الشمالية الغربية. ذي ثلاثة أبواب يُوْطَر كل واحد منها برجين. أُرِخ لهذا السور بالقرن الميلادي الثاني. إن توفر المدينة خلال القرن الميلادي الثاني على معسكر، يدل على الحرص على توفير الأمن لسكانها وحماية مجالها الجغرافي إلى أن تم الجلاء الروماني ما بين 274 و 280 م.

3 - موقع جيلدا أو ريفة : Rhira : عاصمة المملكة المورية ؟

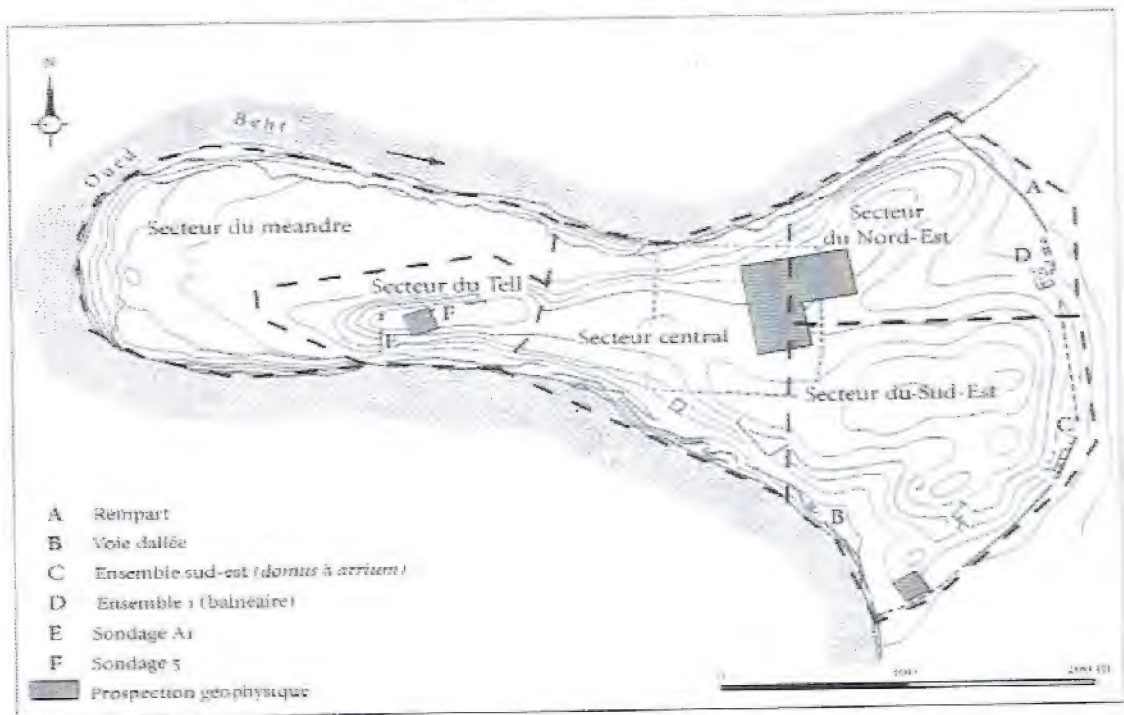
تقع ريفة وسط سهل الغرب على بعد ثمانية كيلومترات شمال غرب سيدي سليمان، في إحدى منعطفات وادي بهت. على الضفة الغربية لهذا الوادي، غير بعيد من برج مراقبة سيدي جابر. يمتد الموقع على حوالي اثني عشر هكتار. ورد ذكر المدينة في العديد من المصادر باسم جيلدا، فقد أشار ألكسندر بوليستور إلى "جيلدا مدينة ليبية"، وأكد بومبيليوس ميلا على أنها توجد داخل الأراضي. وردت باسم سيلدا Silda عند بطليموس الذي وُظِنها بين إحداثيات $33^{\circ}40' - 50^{\circ}7'$. ويضعها الدليل الأنطوني بين أكواداسيكي وفوبيسكيانا. وبذلك فحسب معطيات الجغرافي بطليموس والدليل الأنطوني، فإن جيلدا توجد على وادي بهت غير بعيدة عن سيدي سليمان.

كشفت القائد هالبواش Halbwachs سنة 1919 عن آثار الموقع. واعتبر شاتلان أن مركز ريفعة لا يمكن أن يكون إلا مركزاً عسكرياً، وذلك بالنظر إلى مساحته الصغيرة. ودافع روبيفا عن فرضية أن جيلدا هي ريفعة، وأكد على أنه يجب البحث عن جيلدا في وادي هيت غير بعيدة عن سيدي سليمان. وأرخت نتائج الاستبار الذي أنجزه أوزينا، أن ريفعة تعود للقرن الثاني قبل الميلاد على الأقل.

تم العثور بموقع ريفعة على قطع من الخزف الكمباني والمصبوغ وقطعة نقدية تعود للملك مسينيسا إضافة إلى آثار جدار تزكي فكرة الاستقرار الموري في الموقع. وتم الكشف في الموقع نفسه، عن بقايا سور من الرضم وباب تظهر من آثاره بعض الكتل، إضافة إلى بناية يصعب تحديد وظيفتها وحمامات احتوت بعض غرفها على لوحة فسيفسائية. وفي الجهة الجنوبية الشرقية، بناية من عدة غرف تنفتح على باحة. وهذا فنحن أمام منطقتين سكنيتين و حمامات. بالنسبة للمرحلة الإسلامية فقد عرفت إعادة استغلال البنايات التي تعود للفترة الرومانية من طرف ساكنة الموقع.

تكشف المواقع الأثرية القديمة بمنطقة الغرب عن أهمية المنطقة ودورها التاريخي، سواء خلال عهد الممالك المورية أو خلال الفترة الرومانية. غير أن هذا التعمير سيتراجع مع تعاقب الفترات التاريخية اللاحقة.

خريطة رقم 3 : خريطة الموقع الأثري جيلدا أو ريفعة : Rhira



المحور الرابع : منطقة الغرب خلال الفترة الوسيطة

مع نهاية الفترة القديمة، دخلت منطقة الغرب في فترة العصور المظلمة التي سبقت قيام الإمارة الإدريسية، مؤسسة حكم الأسر التي تعاقبت على حكم المغرب خلال الفترة الوسيطة، وما يثير الانتباه هو استمرار استغلال المواقع التي كانت أهلة بالسكان خلال الفترة القديمة، مما يؤكد توالي توافد واستقرار القبائل الأمازيغية والعربية بالمنطقة. وتكشف الدراسات الأثرية للفترة الوسيطة عن مواقع تاريخية تذكرها المصادر التاريخية، منها ما هو حضري مثل موقع البصرة، ومنها ما هو عسكري على غرار موقع حد كورت. واستقبلت منطقة الغرب موجة من الزهاد والصلحاء منذ الفترة الوسيطة طبعوا ببركاتهم مواقع مختلفة من المنطقة كما هو الحال بالنسبة لموقع مولاي بوسلهام.

1- مدينة البصرة : عاصمة الأدارسة في منطقة الغرب

يوجد الموقع الأثري لمدينة البصرة حاليا على بعد حوالي 22 كلم من مدينة سوق أربعاء الغرب وحوالي 33 كلم من مدينة وزان، ويمتد على مساحة 30 هكتار، تعبره الطريق الرئيسية المعبدة الرابطة بين سوق الأربعاء ومدينة وزان. تم تأسيس مدينة البصرة أو الحمراء الإدريسية ما بين 180هـ/796م (وهي فترة حكم الرشيد) و 197هـ/803 م (وهي فترة حكم إدريس الثاني). وعرفت هذه المدينة تطورا كبيرا حيث انتقلت بسرعة كبيرة من مجرد قرية إلى مكان إقامة الأمراء الأدارسة. وفي سنة 958 م، خلال رحلة لأحد قادة الخليفة المعتز جوهر، تم تأسيس دولة إدريسية صغيرة تابعة لحكم الفاطميين تمتد من صنهاجة بالريف الأوسط إلى منطقة غمارة بالريف الغربي وعاصمتها مدينة البصرة.

ورد ذكر مدينة البصرة في المصادر التاريخية الوسيطة التي تحدثت عن أهميتها وكبرها قياسا بمدن القرن التاسع الميلادي، بحيث تبدو من خلال أساسات السور المحيط بها، أن مساحتها تجاوزت الثلاثين هكتارا. وأن هذا السور كان يتوفر على عشرة أبواب، كما تبين أنه كان بطول كيلومترين ونصف، وكان سمكه أزيد من مترين، وله أبراج شبه دائرية. وقد سجل المؤرخ الجغرافي أبو القاسم بن حوقل في كتابه صورة الأرض حولها خلال القرن التاسع الميلادي أنها : "مدينة مقتصدّة، عليها سور ليس بالمنيع، ولها مياه عن خارجها من عيون عليها بساتين يسيرة من شرقها، ولها غلات كثيرة من القطن المحمول إلى إفريقية وغيرها، ومن غلاتهم القمح والشعير والقطان يوسهمهم من ذلك وافر. وهي خصبة كثيرة الخير حسنة الأسواق والعمارة طيبة الهواء صحيحة التربة، وفيها قوم لهم خطر وميل إلى السلامة والعلم، و لهم معاسن في خلقهم قد عمت نساءهم ورجالهم. والغالب عليهم حسن القدود والشطاط واعتدال الخلق وجمال الأطراف، ويشملهم الستر والسلامة والمعروف".

وكتب عنها أبو عبيد البكري المتوفى سنة 487 هجرية في كتابه المسالك والممالك قائلا : "مدينة البصرة مدينة كبيرة واسعة وهي أوسع تلك النواحي مرعا وأكثرها ضرعا، وكثرة ألبانها تعرف ببصرة الذبان، وتعرف أيضا ببصرة الكتان لأن أهلها كانوا يتبايعون في بدء أمرها في جميع تجارتهم بالكتان، وتعرف أيضا بالحمراء، لأنها حمراء التربة، وسورها مبني بالحجارة والطوب، وهي بين شرفين، ولها عشرة أبواب، وبجامعها سبع بلاطات، وبها حمامان، ومقبرتها الكبرى في شرقها في جبل، ومقبرتها الغربية تعرف بمقبرة قضاة، وماء المدينة زعاق، وشرب أهلها من بئر عذبة على باب المدينة تعرف ببئر ابن ذلفاء، وخارجها في جناها عيون كثيرة، وآبار عذبة. ونساء البصرة مخصصة بالجمال الفائق والحسن الرايق، ليس بأرض المغرب أجمل منهن".

تجمع كل المصادر التاريخية على أن مدينة البصرة كانت في عهد الدولة الإدريسية، من نصيب الأمير يحيى بن إدريس الثاني، وذلك بناء على إشارة كثرة زوجة إدريس الأول إلى حفيدها محمد بن إدريس الثاني بتقسيم الدولة على إخوته على النحو الذي أورده الناصري في الجزء الأول من كتاب الاستقصا حيث جاء فيه : "واختص يحيى بأصيلا والعراش والبصرة وبلاد ورغة". تميزت مدينة البصرة بوظيفتين رئيسيتين هما التجارة والسياسة، فهي في الأساس كانت نقطة عبور تقع على الطريق

التجاري الشهير (فاس - سبتة)، ثم أنيط بها، فيما بعد، دور سياسي، حيث تحولت إلى عاصمة للأدارسة في عهدهم الثاني بعد خروجهم من فاس ومطاردة موسى بن أبي العافية لفلولهم، وشهدت سقوط دولة الأدارسة سنة 375هـ.

وإذا كان جزء كبير من مدينة البصرة ما يزال مطمورا تحت تراب الموقع فهناك بقايا منها تم الكشف عنها بفضل الحفريات الأثرية التي انطلقت منذ سنة 1980. أبانت هذه الأبحاث أن المدينة كانت محاطة بسور على طول 2,5 كلم و عرضه 2,20 م . يحيط مساحة تصل إلى 30 هكتار. وتطل على مجالها الجغرافي ب 10 أبواب. كما أبانت الحفريات داخل السور عن وجود مصنع خاص بالمعادن وأدوات حجرية، مما يبين أهميتها الأثرية.

شكلت البصرة نموذج المدينة بالمغرب خلال الفترة الوسيطية حيث كانت تتوفر على قصر الإمارة والمسجد الجامع والسوق الداخلية والسوق الخارجية (الأسبوعية) والأحياء السكنية والشوارع والأزقة والنسور والأبراج والأبواب وتوفر المياه، والمقبرة. كما يزخر محيطها الفلاحي بعدد من البساتين والحقول والقرى. واضطلعت مدينة البصرة بالإضافة إلى هذا بوظائف سياسية والعسكرية واقتصادية واجتماعية، شكلت الخطوط العريضة لمعالم المدينة المغربية في الشمال الغربي المغربي خلال الفترة الوسيطية .

2- حد كورت : الحد الفصل بين الغرب والمناطق الجبلية

لا تزال حد كورت ترمز إلى المنطقة البامشية والحدودية بمنطقة الغرب، حتى أن الانتساب إلى هذه المنطقة يحمل دلالة "الأخر" الذي يتزح من الحدود. وتكشف تركيبة اسم "حد كورت" وليس "أحد كورت" كما هو شائع عن الوظيفة الأساسية التي كان يضطلع بها الموقع. فـ "حد" تعني الحدود، وليس أحد. اليوم الأخير من الأسبوع. فالموقع هو عبارة عن موقع أثري ذو طبيعة عسكرية بالقرب من جبل "كورت". تتميز "حد كورت" بكونها منطقة الفصل بين الجبل والسهل، مناخها بارد وممطر شتاء، وحر صيفا. وتشير المصادر التاريخية الوسيطية إلى هذه المنطقة بـ "أزغار" أي مجال الفصل والتلاقي بين جبال الريف والسهول الغربية. أدت هذه الخصوصية الجغرافية إلى اهتمام سلطات الحماية الفرنسية بهذه المنطقة. وكشفت نتائج المسح الأثري أن الموقع كان مركز استقرار حامية عسكرية رومانية. كانت تؤمن التنقل داخل المثلث النافع لموريطانيا الطنجية.

وخلال الفترة الوسيطية، ورد ذكر مدينة "كرت" عند ابن حوقل في كتابه "صورة الأرض" قائلا : "وكرت أيضا مدينة لطيفة في سفح جبل منيعة أيضا بغير صور، ولها مياه كثيرة وأجنة واسعة ومزارع عظيمة وغلاتهم من القمح والشعير والقطن كثيرة، وأهلها تجار والغالب علمهم البربر، وجمع أصل هذا الصفيح المذكور أقليم طنجة آل إدريس". وجاء عنها عند الإدريسي : أن "مدينة كرت، مدينة كبيرة حصينة كثيرة الخير على نظر كبير، يعمرها قبائل من البربر يقال لهم بيانة. وهي اليوم قرية عامرة".

دخل الموقع في سبات مع الفترة الحديثة بفعل انتقال الاهتمام إلى الواجهة البحرية، وإن ظل موقع حد كورت يقوم بدور نقطة الالتقاء بين نمطين من العيش والتفكير، نمط جبلي وتفكير غربي جعل من ساكنة حد كورت تمتين مهنة "الزطاطة" لتأمين تنقل البضائع والبشر بين المناطق الداخلية والشمالية أو الغربية الأطلسية. وقد التصقت صورة نمطية بـ "حد كورت" بالغرب مفادها أنها كانت منطقة "سيبا" خارجة عن سلطة المخزن المغربي. ومع استقرار القوات الفرنسية بالمغرب انتهت إلى أهمية الموقع العسكري، فأعادت توظيف الموقع عبر إنزال حامية عسكرية مخزنية بها كانت تؤمن التواصل بين الريف الذي ظل خارج النفوذ الفرنسي وكذا المناطق الداخلية.

إذا كان موقع "حد كورت" لم يخلف أثارا بارزة، فإن نتائج المسح الأركيولوجية تؤكد وجود شواهد من بنايات وبقايا خزفية تعود إلى الفترة القديمة. وحمل الموقع في المصادر الوسيطية صفة "المدينة" و"القرية العامرة"، مما يؤكد على أهميته. ولا يزال، إلى اليوم، موقع "حد كورت" من أهم المراكز القروية بمنطقة الغرب.

3 - مولاي بوسلهام وتمركز ظاهرة الأولياء والصلحاء بمنطقة الغرب

يعود الفضل إلى الباحث جورج سالمون، خلال بداية القرن العشرين، في التعريف بشخصية مولاي بوسلهام من خلال عمله "بعض الأساطير حول مولاي بوسلهام Quelques légendes relatives a Moulay Bou Selham نشرت هذه الدراسة في الجزء الثالث من مجلة الأرشيف المغربي، سنة 1905، باللغة الفرنسية. اهتم سالمون بمولاي بوسلهام باعتباره أكبر ولي في منطقة الغرب، وعند القبائل العربية المنتشرة على وادي سَبُو ولوكوس. فبعدما عرّف بأصله الحسني الشريف، انتقل مباشرة إلى حكاية بعض الأساطير التي نسجت حول ولادته، وطفولته، ودراسته في القيروان، ومهنته في الخياطة التي كان ينفق من عائداتها على الفقراء، ثم انتقاله إلى أصيلة بالمغرب، وبعدها استقرار للعبادة في مدينة العرائش، ومنها استقراره بالقرب من المرجة الزرقاء

والرواية الوحيدة لسيرة مولاي بوسلهام، منقولة عن مخطوط مناقب مجهول المؤلف، والذي عثر عليه جورج سالمون بالفقر الكبير أوائل القرن العشرين ونقله إلى الفرنسية. وجاء فيها أنه "عندما وصل بوسلهام إلى ساحل أصيلة قادما إليه من مصر عن طريق تونس، ذهب إلى رجال الشمس في دار الشمس [موقع لبكسوس] حيث وجد 45 قبرا لزهاد من المشرق والمغرب، كانوا جميعهم سبقوه إلى البحث عن الباب الصغير والصومعة المذكورة. عندما دخل الشيخ أبو سعيد بو سلهام إليها وجد بها الأولياء الزهاد على قيد الحياة، بينهم عسيان فقدوا بصرهم من كثرة تعبدتهم. وآخرون لم يكونوا يستطيعون الوقوف، وآخرون غيرهم التصفت جلودهم بعظائهم. حياهم بوسلهام وسألهم عن القبور فأخبروه باسم دفن كل قبر وترحموا عليهم. ثم ودعهم الشيخ بوسلهام وواصل سيره فمر من مدينة العرائش التي عاد يتحرى فيها حول الباب الصغير، ورأى شيئا من بعيد لاحظ حين اقترب منه أن عينيه زرقاوان وكان يشبه في ملامحه الأنبياء، فقد كان نحيفا عذب الأنفاس ووجهه متألّق. وعليه ثياب مرقعة، حياه بوسلهام، فرد عليه الشيخ الأزرق ذو العينين الزرقاوين السلام قائلا: "مرحبا بك يا من جار عليه الأمير". ذهب الشيخان بوسلهام والشيخ الأزرق للتجول عند شاطئ البحر، وبينما هما مستغرقان في التأمل شاهدا رجلا يلقي شبكته في البحر، فقال بوسلهام للشيخ عبد الرحمن الأزرق: "ألا تعرف من هذا الرجل الذي يصيد؟ لو أتى علمت بشقاء عبد الجليل (الطيّار) لقلت إله هو بنفسه". وكان الرجل فعلا هو سيدي عبد الجليل الطيّار. سأله مولاي بو سلهام: "ماذا تفعل هنا؟ رد عليه الطيّار: "أميد السمك بالصنارة" قال له بوسلهام: "أدخل يدك في الماء وأمسك بالأسماك بدون صنارة".

ظن سيدي عبد الجليل الطيّار أن مولاي بوسلهام يسخر منه، لكنه مع ذلك أدخل يده في ماء البحر وأخرجها مملوءة بالأسماك دونما حاجة إلى صنارة. ففي كل شعرة من شعر يده كانت قد علقت سمكة. فأشار بوسلهام إلى البحر بأن يتقدم في تلك اللحظة فأطاعه، وانسحب الرجال الثلاثة إلى الباب والصومعة يتبعهم البحر الذي ولج من الباب الصغير (الذي يسمى اليوم المرجة الزرقاء) وواصل تسريه حتى وصل نقطة العبور المعروفة باسم مشرع الحضر. وعند تلك اللحظة بالذات خاطب الشيخ الأزرق مولاي بوسلهام قائلا له: "يا أبا سعيد قل للبحر بأن ينسحب حتى لا يغرق الناس". فأمر الشيخ البحر بأن يتراجع ففعل ولم يترك خلفه سوى قليل من الماء بين تلتين. فبارك أبو سعيد ماء تلك البحيرة قائلا: "رب اجعل من هذه الأسماك علاجا لكل الأمراض، وباركها اللهم بحيث تلازم البركة والعلاج هذا الماء إلى يوم القيامة"

بعدما تراجع البحر دخل الشيخ بوسلهام برفقة الشيخين عبد الرحمن الأزرق وعبد الجليل الطيّار إلى الصومعة المندفون فيها يوسف بن أرسطو، وانصرفوا فيها إلى عبادة الخالق لفترة من الوقت. وفي يوم من الأيام بينما كانوا يقرؤون القرآن، أخذ الشيخ عبد الرحمن يبكي وينتحب إلى أن سقط جثة هامدة، فحزن رفيقاه، وبينما هما يبحثان عن كفن لدفنه دخلت عليهما مجموعة من الأشخاص المجهولين يحملون كفنا. وما أن نظر إليهم الشيخ بوسلهام وهو في شك من أمرهم حتى أجبهش بالكاء ثم سقط هو الآخر جثة هامدة. فقام سيدي عبد الجليل الذي بقي وحيدا مع الرجال المجهولين بغسل جثمانَي رفيقيه ودفنهما. وعندما حفروا للشيخين قبرين وشرعوا في دفنهما، ارتفعت في الجو ريح قوية وأظلمت الدنيا بغيوم سوداء حجبت عن الأنظار الرؤية وجعلتهم يرتعدون. وعندما انجلى الظلام وجد الرجال المجهولون ثلاثة قبور (مفتوحة) وثلاثة جثث، فقاموا بدفنها من دون أن يعرفوا من كان صاحب الجثة الثالثة. وانصرف الرجال الغريباء بينما بقي الشيخ عبد الجليل وحيدا في الصومعة ثمانية أيام أخرى يبكي ليل نهار. و(عندما أدركه الموت) دفن هو الآخر على ضفة البحيرة.

لا تزال الروايات الشعبية حتى اليوم، تزعم أن الأسماك التي تُصطاد من البحيرة (المرجة الزرقاء) مباركة وتشفي كل العليل، وتلك كرامة تحسب على بركة مولاي بوسلهام.

المحور الخامس : المواقع الأثرية والتاريخية خلال الفترة الحديثة بمنطقة الغرب

لم تبقى منطقة الغرب بعيدة عن تطور الأوضاع السياسية والعسكرية التي شهدتها الفترة الحديثة مع انطلاق الاكتشافات الجغرافية. وبرزت أهميتها مع تنامي عمليات القرصنة والجهاد عبر المحيط الأطلسي، كما أنها كانت تجاور مناطق استقرار القوات الاستعمارية الأسبانية بالمغرب مثل العرائش. ووفر واد سبو إمكانية ولوج القوات الأجنبية إلى منطقة الغرب عبر مصب الوادي الذي يحتضن "المعمورة" كقلعة جهادية في مواجهة القراصنة.

وبسبب العراك العسكري الداخلي والخارجي، وجد المخزن المغربي بمنطقة الغرب أرضية لبناء مشروع عسكري خاص يتمثل في إحداث "كتائب" من جيش العبيد خاصة بالسلطان. ويعتبر "مشروع الرملة" من أهم المواقع الأثرية والتاريخية المغربية التي احتضنت أكبر عمليات تجنيد، خاصة القائمة على توظيف ملك اليمين المخزني لحماية السلطة المركزية. ومن أجل تعزيز هذا الدور العسكري احتضنت منطقة الغرب قلعتين عسكريتين، الأولى إسماعيلية والثانية عزيزية، كان لهما دورا أساسيا في دعم شوكة المخزن بالمنطقة، وتم استغلالهما كنقط مرور من قبل القوى الفرنسية في طريقها إلى فاس. لا تزال هذه المواقع الأثرية تثير فضول الطالب والوافد على القنيطرة إلى يومنا هذا.

1 - موقع المعمورة وقصبة المهديّة

أثارت الخاصية الجغرافية لمصب واد سبو في المحيط الأطلسي الانتباه منذ الفترة القديمة. فقد استقبل المصب رحلة حانون القرطاجي منذ القرن الخامس ق. م. وتم تأسيس. بالقرب منه. مستوطنة تيمياتريون حسب ما يفهم من إشارات المصادر التاريخية القديمة. ورد اسم المعمورة في عهد الموحدين خلال القرن الثاني عشر الميلادي، إذ قام السلطان عبد المؤمن ببناء 120 مركبا بحريا حربيا في مرفأ المعمورة. وفي نفس المكان أقام الموحدون مشروعهم البحري. إذ كانت "مرسى المعمورة" عبارة عن دار لبناء السفن، وقاعدة بحرية في العصر الموحيدي.

تحول الثقل الاقتصادي إلى المحيط الأطلسي، مع بداية الاستكشافات الجغرافية الكبرى ونشاط عمليات الجهاد البحري في مصب أبي رقراق، فأصبح مرسى المعمورة نقطة انطلاق الحملات الجهادية الموجهة ضد الإسبان والبرتغاليين. ففي 24 يونيو 1515 وصلت القوى البرتغالية بواسطة أسطول بحري قدم من برشلونة ليرسو بمصب واد سبو في محاولة لبناء قلعة على مشارف المصب، غير أن السلطان محمد السعدي تمكن من إحباط المشروع وطرد البرتغاليين. ازدادت لهفة الأوربيين الذين وجدوا في الموقع منفذا نحو الأراضي الداخلية للمغرب. لقد انتقلت المعمورة من يد السلطة المركزية إلى يد القراصنة الذين حولوها إلى ميناء للترصص بالسفن الأوروبية العابرة للشواطئ الأطلسية. وهكذا احتضنت أشهر القراصنة خلال أواسط القرن السادس عشر ومنهم الإنجليزي هاينورينغ الذي حول ميناء المعمورة إلى قلعة عسكرية بحرية فرضت سيطرتها على الطريق التجاري البحري، كما اضطلعت بدور الحماية للسفن المارة بالواجهة الأطلسية. عرفت هذه القلعة، في التاريخ البحري "بجمهورية قراصنة المعمورة".

كان لتزايد إشعاع ودور القرصنة في مرسى المعمورة أن أثار حفيظة الإسبان الذين جهزوا أسطولا بقيادة لويس فخاردو Luis Fajardo الذي تمكن من السيطرة على المرسى وقلعة المعمورة سنة 1614. أطلق الأسبان على المعمورة اسم "سان ميكيل د أولترا مار". وأمام كثافة عمليات الجهاد ضد المحتلين الإسبان. اضطروا بعد أن اشتد عليهم الحصار إلى التخلي عن المعمورة، وتسليم مفاتيحها سنة 1681 إلى السلطان المولى إسماعيل (1082 - 1139 هـ / 1672 - 1727) فدخلها وسماها المهديّة. وكان من أبرز القواد المخزنيين الذي استقروا بالمهديّة القائد علي الريفي الذي شيد بقصبة المهديّة بابا كبيرا وقصرا وسجنا وخزانات وحمّامات ومسجد، بالإضافة إلى مجموعة بنايات وظيفية داخل القصبة. وفي سنة 1795 قام السلطان مولاي سليمان (1792 -

1822) بإغلاق مرسى المهديّة في وجه التجارة البحريّة، فانتقل نشاطها الاقتصادي إلى مرسى سلا، لتصبح المهديّة عبارة عن مرفأ نهري لزوارق الصيد.

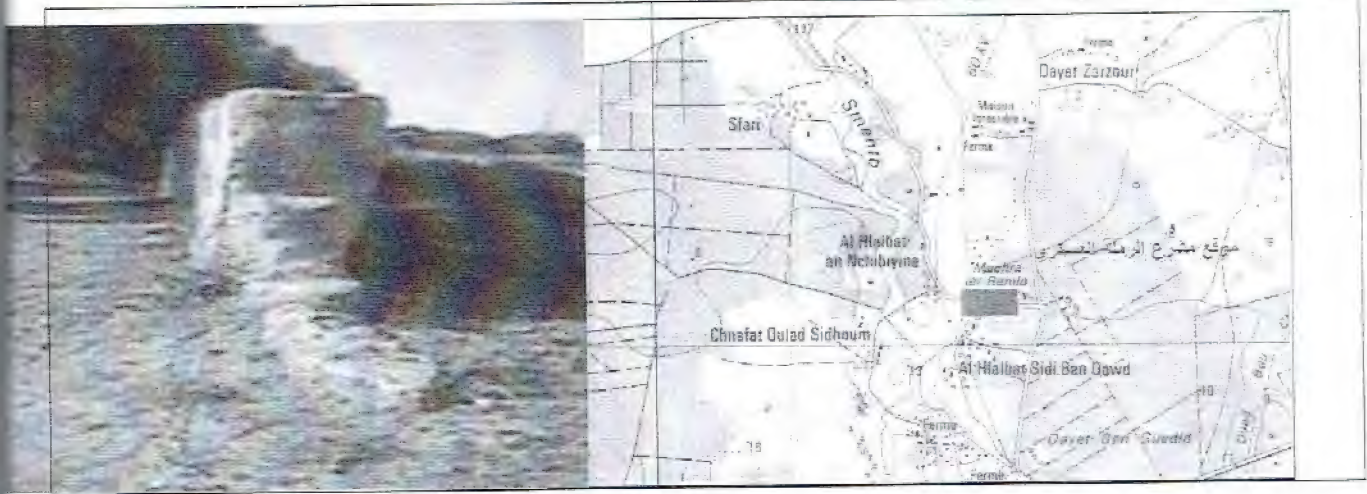
لا تزال قصبة المهديّة تشهد على الحلقات التاريخيّة لمصب واد سبو، بالنظر لموقعه الجغرافي الذي أثار انتباه الحضارات الشرقيّة كما الحال بالنسبة لرحلة حانون القرطاجي، أو الغربيّة كما الحال بالنسبة للأطماع الأيبيرية. كما أن المخزن المغربي عبر التاريخ استفاد من هذا الموقع الاستراتيجي حيث لا تزال أثار قصبة المهديّة تشهد على الدور التاريخي للمنطقة.

2 - موقع مشرع الرملة : حاضنة جيش البخاري

يعتبر موقع مشرع الرملة من أهم المشاريع العسكريّة التي وظفها المخزن المغربي لتفويّة آليات بسط نفوذه خلال العصر الحديث. يقع موقع مشرع الرملة شمال سيدي يحيى الغرب، إذ ما تزال بناياته ظاهرة، ويمتد على مسافة 5 كلم جنوب المدينة، وهي عبارة عن أسوار وجدران لخراب ما تبقى من مشرع الرملة العسكري.

تنطبق أثار هذا الموقع مع ما تقدمه المصادر التاريخيّة التي أولت له اهتماما نظرا لدوره في تثبيت دعائم حكم السلطان المولى إسماعيل. لقد انتبه هذا الأخير إلى كثرة الأسرى، من جهة، ومن جهة أخرى التنافس على اقتناء الرقيق، فأصدر قراره بمنع الرعيّة من تملك "عبيد المخزن"، فجعل العبيد تابعين للدولة. وأسس منهم جيش نظامي عرف بـ "عبيد البخاري" الذي أنيطت به الخدمة العسكريّة وتعزيز الأمن وضمان تأمين طاعة القبائل وجمع الضرائب منها. تطور موضوع اسقاط ملكيّة الناس على عبيدهم لتشتريهم الدولة ولتجعلهم سندا لها في حروبها، ليصل إلى حد جعل الدولة تلزم جميع السود ولو كانوا أحرارا بالاندماج في الجيش.

صورة رقم 1 : باقيا أثرية إسماعيلية بمنطقة سيدي يحيى قد تكون لموقع مشرع الرملة



قام كاتب السلطان "عليش" بجمع عبيد القبائل وحملهم إلى حضرة السلطان بمكناس، الذي وزعهم على ثكنات عسكريّة، وتعرف بـ "المحلة"، ثم فيها تدريبهم وتسليحهم، وولى عليهم قوادهم، وأعاد توزيعهم في أماكن نزولهم وإقامتهم، وعين عليهم قاضيا. كان أولهم الفقيه محمد بن العياشي المكناسي، وسماه قاضي القضاة للفصل فيما يقع بين الجنود من منازعات وخصومات. وقد كُبر أمر جيش عبيد البخاري حتى استغنى به المولى إسماعيل عما سواه. وأصبح سنده في حروبه وفتوحه، فاعتمد عليه في دولته وسياسته، وعين منه الولاة والقواد. يذكر المؤرخ الناصري أن عدد الجنود من العبيد وصل، في بدايته، إلى أربعة عشر ألفا، احتضن مشرع الرملة عشرة آلاف وأربعة آلاف كانوا بأدخسان. وعند موت السلطان المولى إسماعيل كان

عدد البخاريين مائة وخمسون ألفا، وقد بلغ عدد العبيد المسجلين في محلة مشرع الرملة في آخر أيام المولى إسماعيل حسب الزباني 90 ألفا.

3 - القصبات السلطانية، من خدمة المخزن إلى تسهيل مأمورية انسياب الجيش الفرنسي

عرفت منطقة الغرب إنشاء قصبتين مخزنتين وهما: القصبية الإسماعيلية والقصبية العزيزية. وتقع القصبية الإسماعيلية أو قصر مولاي إسماعيل على صخرة فوق ربوة تطل على مصب واد سبو. وهي معلمة تاريخية ضاربة جذورها في التاريخ، وموروث أثري يسلط الضوء على جزء من تاريخ الصراع العسكري عبر موقع قلعة حربية إلى قصر هندسة رفيعة.

تقول المصادر التاريخية، إنه مباشرة بعد تعيين علي الرفي حاكما على القصبية، أمر السلطان مولى إسماعيل بتوسيع عمرائها، وهكذا تم تشييد دار المخزن وقصر القائد وعدة مرافق عمومية، كالمسجد والمدرسة والحمامات والباب الجديد المطل على غابة المعمورة، كما تم بناء الأصطيالات ومخازن المؤونة، ووقع الاهتمام بالهندسة الدفاعية للقصبية، حيث تم إنشاء مواقع محصنة للمدافع في اتجاه البحر. كما أقيمت حامية عسكرية بالمهدية لحماية القوافل التجارية المارة بالمنطقة. إلا أنه انطلاقا من سنة 1795م، تم إغلاق ميناء المهدية بعد انتهاج السلطان المولاي سليمان لسياسة الانغلاق والاحتراز إزاء القوى الأوروبية.

كان نزول القوات الفرنسية بقصبية القنيطرة في 29 أبريل سنة 1911 استجابة لخطّة استعجالية فرضها صعوبة المسيرة العسكرية الفرنسية التي انطلقت من الدار البيضاء في اتجاه فاس. تولى الجنرال «مواني»، قيادة هذه الحملة التي كانت تهدف الوصول إلى العاصمة فاس، باعتبار أن المهدية تعد أقرب ميناء إليها. تحولت القصبية المخزنية الإسماعيلية إلى قاعدة عسكرية بعد ترحيل ساكنتها، فتم خلق مختلف المصالح الإدارية والعسكرية التي يحتاجها الغزو العسكري. وانطلاقا من سنة 1912م، سيتم إنشاء ميناء القنيطرة، فغادرت القوات الاستعمارية القصبية، لتتحول إلى أطلال، بعدما تعرضت مبانها لأضرار بليغة. وفي نونبر 1942، اكتشفت قوات الحلفاء الأهمية الاستراتيجية للمنطقة، فعرفت نزول القوات الأمريكية في إطار عملية «طورش»، التي كانت تهدف إلى بناء قوات الحلفاء انطلاقا من المغرب، وقد تم تدمير الكثير من المعالم التاريخية للقصبية بسبب المعارك الطاحنة التي دارت أمامها بين القوات الفرنسية الموالية للألمان «حكومة فيشي» والقوات الأمريكية. ولا تزال آثارها شاهدة على هذه المرحلة حيث قبر الجندي المجهول الذي يوجد عند مدخل الطريق المؤدي إلى القصبية.

وعلى بعد 12 كلم، في اتجاه القنيطرة قام السلطان مولاي عبد العزيز ببناء قصبية على الضفة اليسرى لنهر سبو. حملت في الوثائق المخزنية أسماء مختلفة هي: قصبية قنيطرة علي أوعدي، والقصبية الجديدة، تميزا لها عن قصبية المهدية المجاورة، كما نعتت بالمعمرة والعامرة والسعيدة، وحددت وظيفتها في تأمين المسافرين والتجار. وتعتبر هذه القصبية آخر التحصينات العلوية في مغرب ما قبل الحماية. تأثر بناؤها بالطرفية العامة التي كانت تجتازها البلاد، إذ استغرق زهاء ست سنوات من سنة 1312 هـ/ 1895م إلى سنة 1318 هـ/ 1900م بسبب الصعوبات المالية والأمنية والتباطؤ في الإنجاز. حلت بالقصبية، بعد إتمام بنائها في حدود سنة 1318 هـ/ 1900م، حامية عسكرية مكونة من مائتي جندي، وعين السلطان مولاي عبد العزيز عبد السلام التكاني قائدا عليها، ونزل بجوارها في مكان النزلة. قائد الرحا الأغا المعطي بن المدني السريغي المكلف بحراسة القوافل عبر الطريق المخزني من سلا إلى مدن الشمال والشرق الذي تجاوز على ما يبدو سلطة قائد القصبية سنة 1326 هـ/ 1908م، إلى أن تم تعيينه من طرف السلطان مولاي عبد الحفيظ قائدا على القصبية. وبذلك تركز الوجود العسكري داخل القصبية وبسط القائد المعطي السريغي نفوذه على الدواوير المجاورة للقنيطرة، وأصبح مركز القنيطرة مستقلا عن الرباط من حيث التموين العسكري. ووصلت الطلائع الأولى للقوات الفرنسية من فرق الكولونيل برولار إلى قصبية القنيطرة في 29 أبريل 1911. وفي 14 مايو 1911، تعرض ما تبقى في القصبية من الجيوش الفرنسية إلى هجوم مباغت من قبائل زمور والغرب وتمكنت من الحصول على الذخيرة والمؤونة التي احتفظت بها القوات الفرنسية في القلعة الخلفية بقصبية القنيطرة. وغادرت الجيوش الفرنسية قصبية القنيطرة يوم 13 مايو في اتجاه فاس عبر لالة يطو قبل أن تصل إلى مشارف فاس في 25 مايو 1911.

المحور السادس : المواضع التاريخية الكولونيالية خلال الفترة المعاصرة بمنطقة الغرب

1- الضيعات الفلاحية : تراث عمراني قروي بمنطقة الغرب

تزرع بادية منطقة الغرب، الواقعة على الواحية الأطلسية بالمغرب، ببنائات ذات طابع حضري إلى جانب البنايات القروية المحلية. ويطلق على هذه البنايات الحضرية اسم "الفيلا"، وتعرف عند الساكنة المحلية بـ"الفيرما". وهي تشكل محور الضيعة الفلاحية الكولونيالية التي كانت أساس استقرار المستوطنين والمعمرين بالمنطقة خلال المرحلة الاستعمارية. تمتاز هذه البنايات بخصوصياتها الهندسية وطابعها الحضاري حتى أصبحت معالم تاريخية وتراثا عمرانيا يحمل في طياته إرثا حضاريا يجد جذوره في الفترة القديمة ويمتد عبر تاريخ التعمير إلى أن تجسد، مرة أخرى، خلال فترة الحماية الفرنسية بمنطقة الغرب.

وقد أبانت الدراسات التاريخية والأثرية لهذه البنايات، عن انتشارها الواسع بمنطقة الغرب منذ الفترة القديمة قبل أن تختفي خلال الفترة الوسيطية والحديثة، إلى حدود تطبيق نظام الحماية الفرنسية على المغرب مع مطلع القرن العشرين. حيث ظهر هذا الصنف من البنايات الحضرية في المجال الغربي، من جديد، وبشكل مثير للانتباه. وأثارت هذه البنايات اهتمام الدراسات العمرانية خلال مرحلة ما بعد الاستقلال، إذ تم جرد أزيد من 365 بناية حضرية ذات طابع أوربي بمنطقة الغرب. وأظهرت جانبا من الدراسات التي تناولت هذه البنايات عن تنوع أشكالها الهندسية، وغنى محتوياتها، وتباين مكوناتها، حتى أصبحت في الآونة الأخيرة معالم "تاريخية أوربية" في مجال قروي مغربي.

أ - موقع مزرعة بريو La ferme Prio :

أثار الموقع الأثري لمزرعة بريو بجبة الغرب مجموعة من الفرضيات حول طبيعته، فهناك من اعتبره موقع لمدينة "جبلدة" ومن اعتبره موقعا عسكريا، خاصة وأنه يتوفر على خصائص دفاعية واستراتيجية مهمة في المنطقة. غير أن الدراسات الأركيولوجية الحديثة أثبتت أن موقع مزرعة بريو هو لاستغلالية فلاحية. كما تضاربت الآراء حول تاريخ هذا الموقع، وإذا كان "أوزينا" يرجع هذا الموقع إلى القرن الثاني ق. م.، فإن "شاتلان" يؤرخ له بالقرن الثالث الميلادي اعتمادا على النقود التي عثر عليها في الموقع. يقع موقع مزرعة بريو على أحد المنحرجات لواد بهت وتبلغ مساحته الإجمالية حوالي 2000 م. كما خلف الموقع نقبستان ورجل خيل من البرونز وبعض التماثيل المنزلية ثم مجموعة نقود تعود أغلبيتها إلى القرن الثالث الميلادي تؤرخ لفترة الإمبراطور "كوردينانوس" و"فيليبوس"، بالإضافة إلى بقايا مواد الفخار المتنوع التي تشكل أدوات المنزل. ولا تزال، حاليا، في المزرعة بقايا أحجار تشهد على بنايات قديمة، إلى جانب ثلاث مطاحن للحبوب ومقصرة للزيتون.

ب - موقع مزرعة بيارنياي La ferme Biarnay :

يمتد موقع مزرعة بيارنياي La ferme Biarnay على مساحة تتراوح ما بين 25 و 30 هكتار ويشرف على الأراضي الخصبة لبلاد المكورة قرب الخنيشات على واد ورغة. يشغل الموقع الأثري مساحة تزيد عن الهكتار وقد خلف أسوارا لمباني رومانية ومواد خزفية مختومة ذات البرنيق البرتقالي، إلى جانب بعض النقود الرومانية للإمبراطور "دوميسيانوس" و"كومودوس". وهذا ما يجعل من هذا الموقع أحد نماذج الاستغلالية الفلاحية الرومانية في منطقة الغرب خاصة وأنه يوجد في موقع إستراتيجي يشرف على منخفض الخنيشات الواقع بين وادي ورغة ونهر سبو على بعد 8 كلم من ملتقى النهرين. ومن المرجح أن هذا الموقع كان محصنا، مما يؤكد الدور الإستراتيجي لهذه "المؤسسات" في موريطانيا الغربية كمثيلاتها في باقي الأقاليم الرومانية. وغير بعيد من

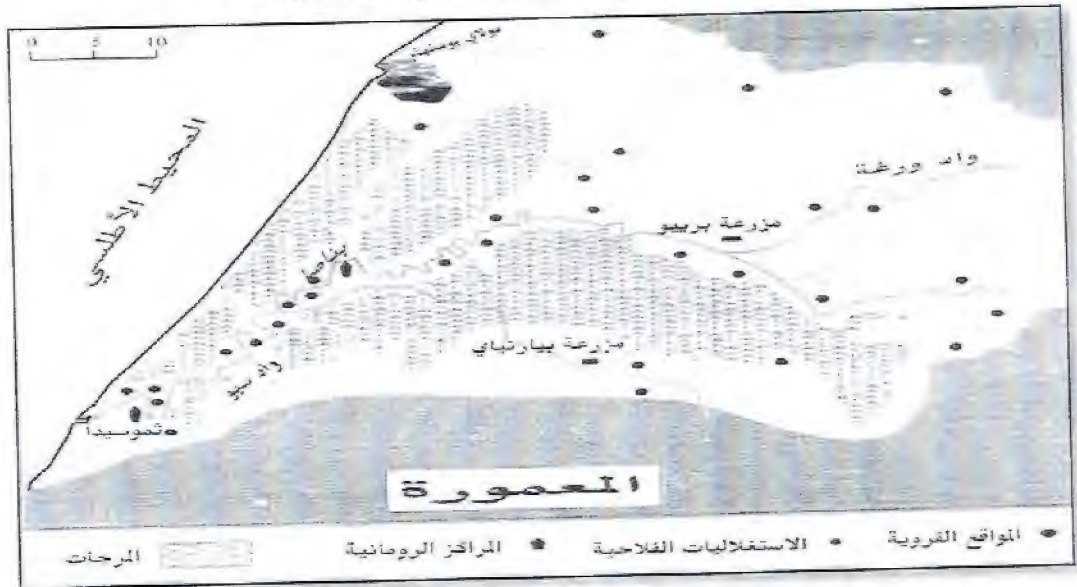
تموسيدا في الجهة الشرقية يوجد موقع "فرعنا" إلى جانب عدد من أبراج المراقبة. ويرى "روبوا" أن هذا الموقع قد يكون لاستغلالية فلاحية كانت محصنة.

ج - موقع باب تيسرة Bab Tisra :

عكس الموقع السابق، يعتبر باب تيسرة من المواقع القروية التي حظيت باهتمام التنقيبات الأركيولوجية في الأراضي الداخلية لموريطانيا الغربية والتي أسفرت عن إقامة تصميم هندسي يكشف عن نمطية الاستغلاليات في هذه الجهة. ويوجد هذا الموقع قرب سيدي قاسم على فج واد الردم وقد تم اكتشافه سنة 1930 من طرف "لويس شاتلان" ونشر "لوكي" بعض نتائج الحفريات إلى جانب تصميم الموقع في الأطلس الأركيولوجي للمواقع الأثرية بجهة الغرب. يبدو أن أسوار هذا الموقع كانت من الحجارة الكبيرة غير المنحوتة وأنه كان يستعمل القرميدات المنبسطة إلى جانب الأجورات غير المشوية مما يدفع إلى الاعتقاد بأن الموقع يعود إلى فترة ما قبل السيطرة الرومانية على موريطانيا، إلى جانب هذه المواد خلف الموقع الخزف المختوم الأحمر الإسباني مما يدل على استمراره في الاشتغال إلى القرن الثالث ميلادي.

يتضح من خلال تصميم موقع باب تيسرة أن جناحه الجنوبي كان يتوفر على معصرة للزيتون، بل إن "لوكي" يشير في تقديمه لهذا الموقع أنه كان يتوفر على معصرتين. كما تضمن هذا الجناح مطحنة للحبوب إلى جانب المخازن التي تظهر على شكل بنايات طويلة الشكل. وبذلك يتضح أن هذا القسم من الاستغلالية كان مخصصا للمحترقات التحولية وعناصرها. أما بيوت السكنى فيبدو أنها تتوزع في القسم الشمالي وإن كان من الصعب التمييز بين وظائفها.

خريطة المواقع الأثرية القروية بمنطقة الغرب



2 - إحياء "الفيلا القروية" بمنطقة الغرب مع تطبيق الحماية الفرنسية على المغرب.

مع تراجع نفوذ الرومان في موريطانيا الطنجية سنة 285 م، إلى شمال أبيدوم نوقوم (القصر الكبير)، دخلت الضيعة الفلاحية ومعها "الفيلا" القروية مرحلة الأفول. ولم تعد المصادر التاريخية الوسيطية تذكر إلا المزارع والبساتين التي كان يمر عبرها الحجاج والرحل دون إغارة الاهتمام إلى بنايات قروية تثير انتباههم على نفس النحو الذي كانت عليه "الفيلات" القروية في الفترة الرومانية.

وتذهب الدراسات التاريخية للتراث العمراني القروي خلال الفترة الوسيطية إلى القول بأن بيوت الفلاحين بالبادية المغربية كانت "بربرية" تعتمد في بناءها على المواد الطبيعية من الطين والحجارة والخشب والقصب والتبن. وأما هندستها فتتكون في الغالب من طابق أرضي يجمع بين بيوت السكنى التي تحاذي المخازن، وفي الجوار إسطبلات البهائم. وقلما تتوفر هذه البنايات على طابق علوي يستغل للتخزين يطلق عليه "إغرم" أو "أكادير" أو الخزين، حسب اللهجات المغربية.

نموذج من بنايات "لفيلا" قروية بمنطقة الغرب



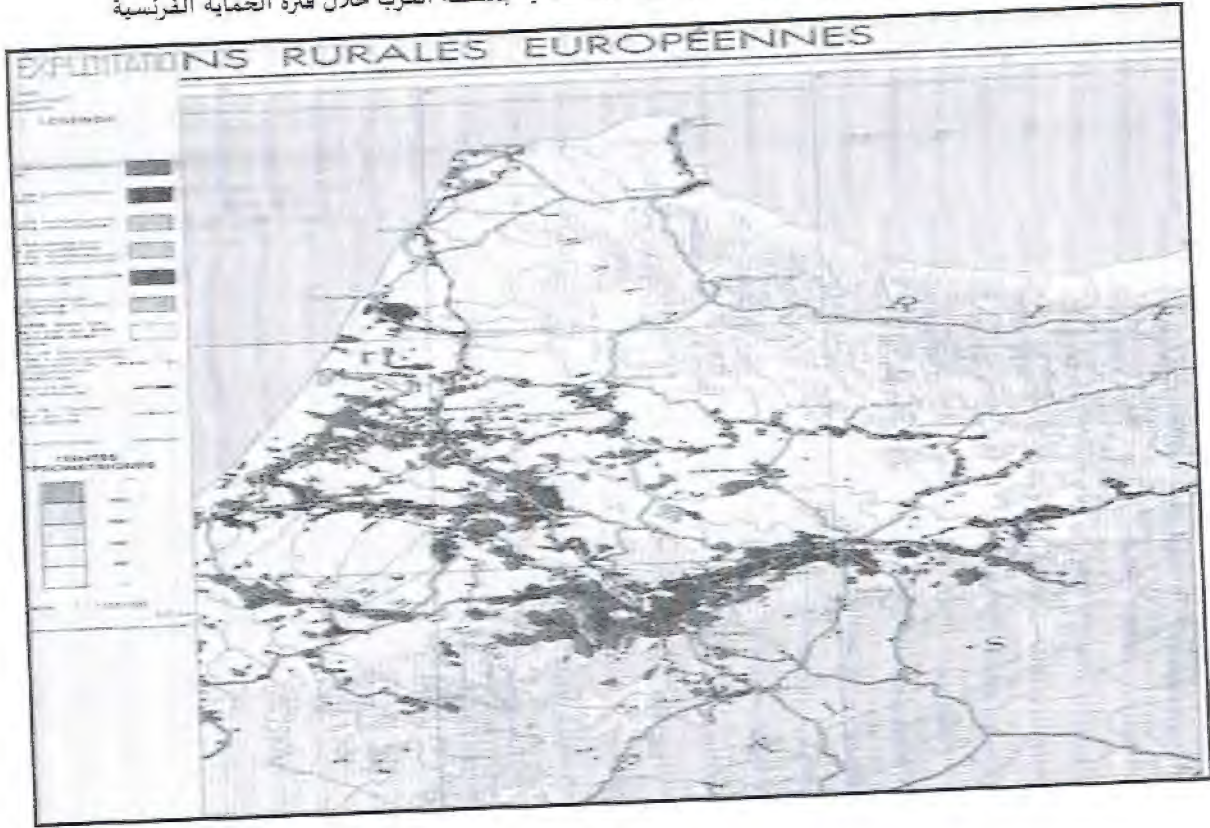
بقيت البنايات القروية المجتمعة في دواوير تؤثث مجال البادية الغرباوية إلى جانب النواله والخيمة إلى حدود بداية القرن العشرين وتطبيق نظام الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912. وقد شرع الأوروبيين في الحصول على الأراضي الفلاحية بمنطقة الغرب وتمليكها مباشرة بعد انعقاد مؤتمر مدريد سنة 1880، الذي أقر تطبيق الحماية الفردية، والسماح للأوروبيين بامتلاك أراض في ضواحي المراسي المغربية بعد الحصول على إذن من المخزن المغربي. وفي سنة 1911 استحوذ المعمرون الفرنسيون على 80 ألف هكتار من الأراضي الفلاحية بالمغرب منها 30 ألف هكتار في منطقة الغرب.

كان من نتائج هذه السياسة الزراعية التشجيعية أن ارتفع عدد المستوطنين الزراعيين بمنطقة الغرب من 500 سنة 1920 إلى 1000 مستوطنا سنة 1925 ويرتفع إلى 1500 سنة 1927، ثم إلى 2067 مستوطنا سنة 1937، قبل أن يصل إلى 5000 مستوطن عام 1951-1952، حيث شكل الفرنسيون 86% من مجموع عدد المستوطنين، في حين أن الأسبانيين كانوا يمثلون 7%، والإيطاليين 2%، وباقي الجنسيات الأوروبية الأخرى لم تتجاوز نسبة 5%.

كان من نتائج استقرار الأوروبيين والمعمرين الفرنسيين بمنطقة الغرب، أن بدأت تظهر بها بنايات مهندسة حضرية. وسرعان ما شكلت هذه البنايات نقط ضبط يتم بموجها إرشاد المارين أو السائلين. وأصبح إسم المعمر أو لقبه يحيل على الأرض التابعة له وعلى الدواوير التي تنتشر بالقرب من إقامته. وتطور دور "الفيلا" القروية لتتخذ طابعا مؤسساتيا يتمثل في إقامة المالك مع أفراد أسرته، وبالقرب منها إقامة مسير الضيعة

ومحلات للعمال المياومين. بالإضافة إلى مرافق أخرى تأوي الحيوانات والعتاد الفلاحي. وقد تحتوي بعض "الفيلات" على مخازن وكذا محترفات للمنتوجات الفلاحية.

خريطة رقم 2 : توزيع أراضي المستوطنات والضيعات الفلاحية بمنطقة الغرب خلال فترة الحماية الفرنسية



أصبحت هذه "الفيلات" معالم حضرية غربية تؤثر على تسرب الأوروبيين إلى منطقة الغرب الفلاحية. كما أن السلطات الفرنسية اتخذت منها "محطات" أساسية للتغلغل والتعرف على عمق البادية المغربية، وأداة للتحكم في تحرك الساكنة القروية. وعمدت سلطات الحماية الفرنسية إلى تشجيع إقامة هذه البنايات عبر ربطها بالطرق المعبدة وإمدادها بالتيار الكهربائي، مما أهلها لتلعب دور الوسيط بين البادية وساكنتها والمدينة المجاورة لها. وحتى تضطلع بالدور المنوط بها، حرصت سلطات الحماية على إعطائها طابعا عمرانيا أوروبيا مخالفا لطبيعة المنازل الحضرية التي كانت تزخر بها الحواضر المغربية. وتجلى هذا النمط الغربي في الهندسة والشكل العمراني ومكونات البناية، حتى أضحت بناية "الفيلا" تجسد تغلغل الحماية في عمق البادية المغربية.

2 - المنشآت الاقتصادية : بور اليو طي، الميناء الذي أفرغ مدينة القنيطرة

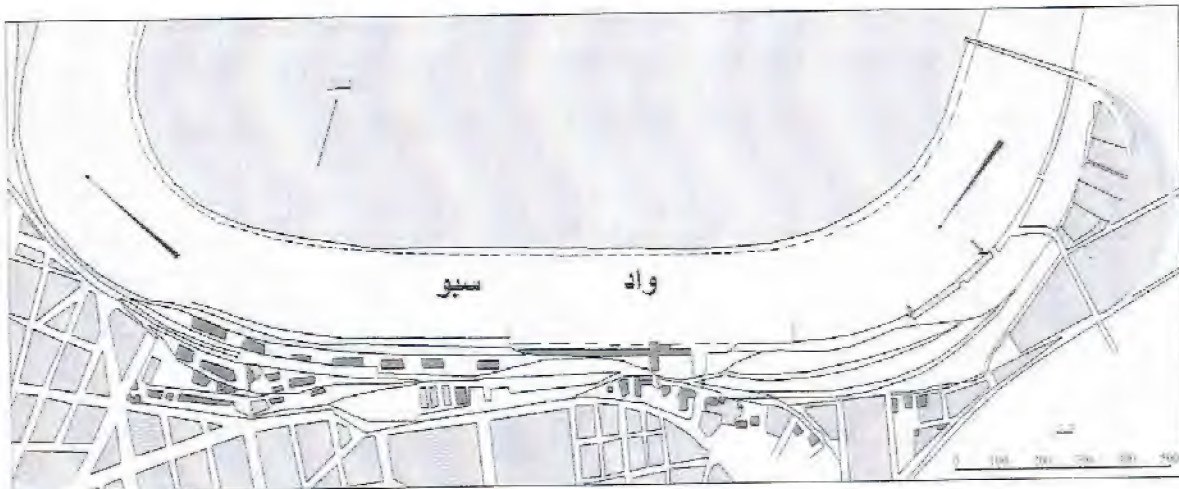
تشتهر مدينة القنيطرة بموقعها على نهر سبو وبانتشار أعشاش طائر اللقلاق بالقرب من المرسى. كما تشتهر بقرمها من شاطئ المهدية عند مصب نفس النهر، وبانتشار بنايات على الطراز المعماري الأوربي، ويتوزع شوارعها بشكل متواز يجعل أحياءها مربعة، وبانتشار معالم تاريخية تعود إلى فترة الحماية. فقد وفر مصب الواد إمكانية إقامة بوابة تربط سهل الغرب بالطريق البحري الأطلسي. وهذا ما دفع الفرنسيين إلى التفكير في إقامة أول مرسى نهري ما بين بناسا والمهدية، فشرعوا منذ 1913 في إنشاء أول ميناء نهري بالمنطقة ليكون منشأة اقتصادية لتصريف المنتجات الفلاحية لسهلي الغرب وسائيس. كما أنهم جعلوا منه النواة الأساسية لإحياء "مجد أجدادهم" في المنطقة على غرار الآثار الرومانية بالمنطقة.

كان من نتائج هذه المجهودات أن قدم ميناء القنيطرة خدمات جليلة، انطلقت من الدور العسكري الذي قام به خلال المرحلة الأولى، قبل أن يتم فتحه في وجه التجارة، ليصبح مركز التصدير والاستيراد عبر طريق المحيط الأطلسي، ويدخل في منافسة باقي موانئ المغرب سواء التي كانت في المنطقة الشمالية الخاضعة لإسبانيا أو التي كانت تابعة للحماية الفرنسية. أعلن الجنرال ليوطي خلال مؤتمر صحفي عقد في غشت 1912 بالإقامة العامة، عن اختيار القنيطرة كقاعدة عسكرية ومحطة ثانية بعد المهدية. وأعطيت الأوامر لتوجيه الآليات إلى ميناء القنيطرة لبدء الأشغال، حيث شرع في إنشاء رصيف عائم من طرف فريق الهندسة لوضع الاحتياطات من المؤونة الخفيفة، وفي غشت سنة 1912 تم بناء رصيف مجهز برافعة تصل حمولتها إلى 6 أطنان. وفي بداية شهر يناير سنة 1913 م تم فتح الميناء في وجه التجارة، فازدادت أهمية الميناء وامتيازاته.

تتبع مصالح الهندسة العسكرية الفرنسية تطور مشروع الميناء ما بين 1914 و 1916، وبعد ذلك صدر قرار وزاري ينص على تحديد حدود "مرسى المهدية - القنيطرة" والمرافق التابعة لها. وفي سنة 1917 تم تقديم تصميم الميناء الذي يشمل على مكونات ميناء القنيطرة ومرافقه، وقد جاء تصميم الميناء على شكل "مجمع" تتداخل فيه ما هو مرتبط بالملاحة بما يتعلق بعمليات الشحن والتفريغ، إضافة إلى المخازن والمستودعات والمصالح الإدارية والمرافق الضرورية في كل منشأة اقتصادية. ويسمح التصميم الكلي والتصاميم الفرعية بالوقوف على مكونات ميناء القنيطرة.

تمتد منشآت الميناء على مساحة ثلاثة وسبعين هكتارا وألفين وأربعمئة متر مربعة. وبشكل الرصيف أهم عنصر بالميناء، فبعدما كان رصيف ميناء القنيطرة لا يتعدى 18 م، تمت، في المرحلة الموالية إقامة رصيف آخر داخل مجرى النهر في المنطقة التي تغمرها المياه أثناء عمليات الجزر. شرعت شركة المراسي المغربية للمهدية - القنطرة والرباط - سلا، في بناء رصيف قاري على شاطئ الواد بالإسممت المقوى منذ 1916 على طول يمتد على مسافة 1000 م.

التصميم الهندسي لميناء القنيطرة



المصدر : عمل خاص انطلقا من تصميم ميناء القنيطرة ومرافقه الذي قامت به سلطات الحماية ابتداء من 24 ديسمبر 1914 إلى 24 يناير 1916

كان من نتائج توالي إنجاز وتوسيع الرصيف أن أمتد على طول 2 كلم و 2 إلى 300 م في العرض، ويتشكل ميناء القنيطرة، انطلاقا من الأسفل في اتجاه العالية، من الأرضة :

- 1 - رصيف دوبروي (Quai Dubreuil) يصل إلى 224 م مبني على ركائز مغروسة في عمق الواد بواسطة الإسمنت المسلح .
- 2 - رصيف مكناس (Quai Meknès) تمت إعادة بنائه سنة 1953. وهو عبارة عن صفائح حديدية ممتدة إلى قاعدة النهر،
- 3 - رصيف فاس (Quai de Fès) من نفس صنف رصيف دوبروي. يصل طوله إلى 300 م.
- 4 - رصيف المعادن (Quai à minerai)، يصل طوله إلى 100 م وتم الانتهاء منه سنة 1959.

تجدر الإشارة إلى أن ميناء القنيطرة عرف تعزيزات من حيث التجهيزات فيما يخص آليات الشحن والإفراغ التي تم تزويد الميناء بها على طول فترة اشتغاله إلى أن وصلت إلى : 6 رافعات متحركة بالبخار تصل طاقتها إلى ثلاثة أطنان و 3 رافعات متحركة بالكهرباء تصل طاقتها إلى ثلاثة أطنان، و 3 رافعات متحركة بالكهرباء تصل طاقتها إلى خمسة أطنان. بالإضافة إلى هذه الرافعات، تم تزويد الميناء بشاحنة رافعة تصل طاقتها إلى 5 أطنان و 4 قطارات، يحتوي كل واحد منها على ثلاث قاطرات لحمل البضائع.

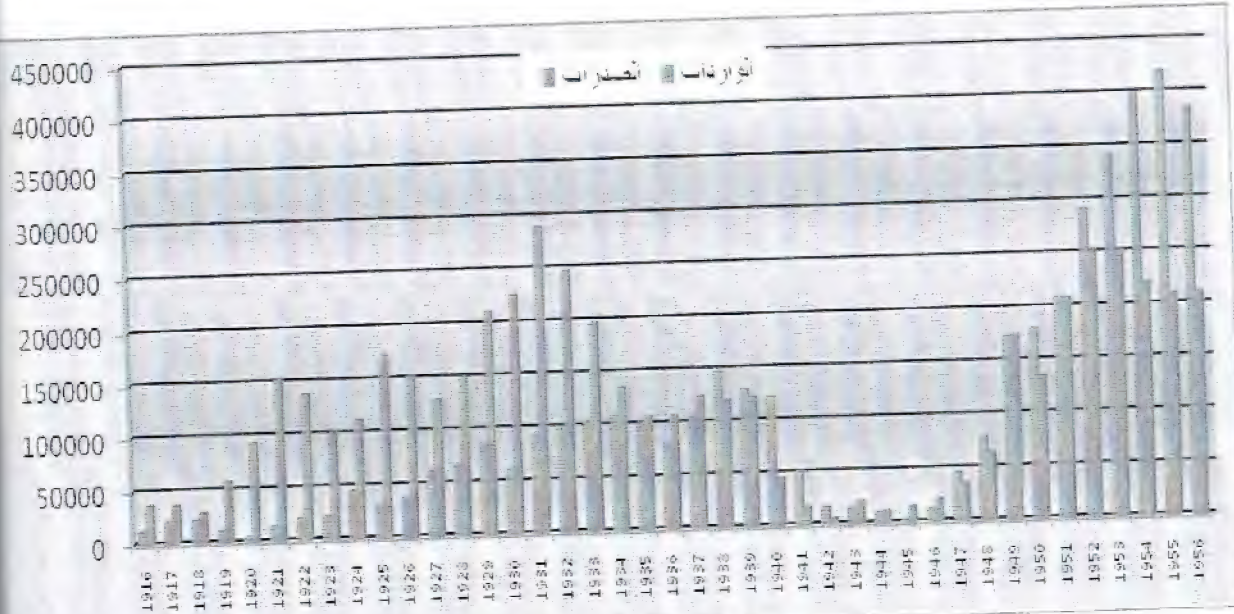
ومن أجل تقديم مزيد من الخدمات تضمن تصميم ميناء القنيطرة إحداث مجموعة من المستودعات المفتوحة (10 مستودعات من مختلف المساحات) لوضع البضائع في انتظار نقلها. تتوزع أغلبية هذه المستودعات عند مدخل الميناء في الجهة اليمنى، بينما يوجد أكبر مستودع في أقصى الجهة اليسرى. كانت هذه المستودعات محاطة بأسوار أو مسيجة تضمن حفظ البضائع، كما أنها كانت مفتوحة لاستقبال أكبر كميات من البضائع.

إلى جانب المستودعات المفتوحة تضمن ميناء القنيطرة 10 مخازن مغلقة. تتوزع هذه المخازن في القسم الغربي من الميناء. إذ توجد المجموعة الأولى (6 مخازن) مباشرة على الرصيف. مما سهّل عملية التخزين في انتظار الشحن أو الخروج من الميناء. بينما تتوزع المجموعة الثانية (4 مخازن) في الواجهة الشمالية الغربية من الميناء. مما يسهّل عملية ولوج الشاحنات والعربات إليها مباشرة من الطرق البرية التي تخترق مدينة القنيطرة في اتجاه الميناء.

شكل خزان الحبوب أو المطمورة (Silos) معلمة ميناء القنيطرة. نظرا لارتفاع بنائها ودورها العام كخزان لأهم منتج فلاحي بمنطقة الغرب؛ إذ تم بناءها على مساحة 6000 م. وتصل قدرتها الاستيعابية إلى 60.000 قنطار. بنيت سنة 1933 م، على الأراضي المنبسطة وراء رصيف فاس. وتشمل كل الأدوات اللازمة للوزن والتجفيف وتنظيف الحبوب. كما تم تزويد هذه الخزانات بآليات تسعف في شحن الحبوب بقدرة 400 طن في الساعة الواحدة. بدأ هذا الخزان في العمل منذ 18 مايو 1933. وقد أكملت هذه البناية بمخزن احتياطي آخر من نفس السعة.

وحيث إن ميناء القنيطرة، هو ميناء نهري بامتياز فقد أهله خصوصياته الطبيعية أن يحتضن "القاعدة العسكرية النهرية للقوات الجوية الفرنسية الخفيفة والطائرات المائية". وقد تم استغلال المميزات الهامة لسبو والمتعلقة في صلاحيتها لرسو الطائرات المائية، وكذلك لتوفره على مساحة مهمة من الميناء يتراوح عرضها بين 200 و 400 م² بفضل المنعطفات الواسعة التي تجعل الطائرات محمية من هيجان البحر ومن تلاطم الأمواج. وفي سنة 1927 أنشئ مركز للطيران على الضفة اليسرى لسبو. وأصبح بذلك ميناء القنيطرة محطة للطائرات المائية لشركة الجو الفرنسية التي تسير على خط أمريكا الجنوبية، كما أُنست قاعدة جوية على جانب كبير من الأهمية.

من أجل ضمان سير العمليات بالميناء تم تزويدها بمختلف المصالح الإدارية، ومرافق الخدمات التي تجعل من المنشأة الاقتصادية مجمعا قائم الذات مستقل عن المرافق الأخرى، ويتطلع إلى لعب الدور قاطرة التنمية، بل والتنافسي على المستوى التجاري ما بين جهة الغرب من جهة، ومن جهة ثانية مع ميناء الدار البيضاء.



الحركة التجارية بميناء القنيطرة ما بين 1916 و 1956

يكشف الرسم البياني للحركة التجارية بميناء القنيطرة ما بين 1916 و 1956 عن مستويين : يتجلى المستوى الأول في القراءة الأفقية للحركة التجارية للميناء عموما، والتي يمكن أن نميز فيها بين مرحلة الانطلاقة من 1916 إلى 1920 و مرحلة الاستقرار حتى 1940، تلتها مرحلة الركود إلى 1948 قبل أن تعرف انتعاشا وتطورا حتى 1956. أما المستوى الثاني ويخص تقاطع الصادرات والواردات، فنلاحظ أنه إلى حدود 1934 كانت الواردات تغطي على الصادرات قبل أن تعرف نوعا من التوازن إلى حدود 1947، لتتجاوز الصادرات الواردات. وبذلك يلخص هذا الرسم البياني إلى حد ما تاريخ الحركة التجارية التي عرفها ميناء القنيطرة خلال فترة الحماية الفرنسية، كأحد الأقطاب الاقتصادية التي لعبت دورا أساسيا في تنفيذ مشروع الحماية الفرنسية بالمغرب.

وتجدر الإشارة إلى أنه كان من نتائج هذه الحركة التجارية أن استقرت بالقنيطرة، وخصوصا في المناطق المجاورة للميناء مجموعة من الشركات الفرنسية والأوروبية المهمة مثل الشركات المجهولة الاسم والشركة العامة للنقل الأطلنطي، والشركة المغربية للفحم والبحرية، والشركة الوهرانية المغربية وغيرها.

3- المراكز الحضرية بمنطقة الغرب خلال الفترة المعاصرة

سيدي يحيى الغرب

مدينة سيدي يحيى الغرب من المدن القديمة، وهي مدينة تقع في سهل جد منخفض حيث يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر بحوالي 30 متر وهي مدينة غابوية تحيط بها غابات الكالبتوس من كل جانب وتتم من وسط المدينة الطريق الوطنية رقم 4 الرابطة بين سيدي سليمان والقنيطرة

تم أحداث المدينة مع نهاية القرن التاسع عشر وفي 1919 تم بها إحداث مركز قروي اتبط اسمه بالوالي سيدي يحيى بن المنصور. إلى جانب هذا الوالي تعرف مجموعة من أولياء منهم الوالي سيدي امبارك، سيدي كعاش، والوالي سيدي كرون

سيدي سليمان

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، تم إنشاء السكك الحديدية سنة 1920 بين الدار البيضاء وفاس، وبناء الطريق الرئيسية الرابطة بين المدينتين السالفتي الذكر. وكان على رأس القوات العسكرية والوجود الفرنسي في المنطقة الرهيب هونري بريو (Henry Prio) الذي أنشأ أول ضيعة فلاحية كبيرة على أراضي خصبة وشاسعة بجوار النهر تجاوزت مساحتها مئات الهكتارات قرب الوالي الصالح سيدي سليمان. إنها الضيعة التي يسميها اليوم سكان مدينة سيدي سليمان بضيعة «بريو» أو ضيعة التازي نسبة إلى الشخص الذي تمكن من تملكها لفائدته. وبعد إتمام إنجاز هذه التجهيزات الحيوية، تولدت عند هذا الرهيب إنشاء قرية استعمارية سماها سيدي سليمان، نسبة إلى الوالي الصالح السالف الذكر على شكل مركز استعماري، وتحول بذلك اهتمام الفرنسيين من دار بلعامري إلى سيدي سليمان.

مشرع بلقصيري Paris Petit

سميت مشرع بلقصيري بهذا الاسم نسبة إلى رجل اسمه بلقصيري كان يقوم بعمليات نقل القوافل التجارية التي كانت تمارس نشاطها التجاري بين فاس وطنجة على مركبه ويعبر بها نهر سبو ونتيجة لهذه العمليات التكرارية والتي أصبحت اعتيادية بالنسبة للناس أصبحت مدينة بلقصيري تحمل اسمه فمشرع أي ممر وبلقصيري إسم رجل كان نقطة اتصال بين قبيلتين هامتين هما قبيلة سفيان وقبيلة بني مالك

تم إنشاء مدينة مشرع بلقصيري في 20 غشت 1913 في موقع يعد قلب سهل سبو الخصب مما جعله نقطة تواصل مهمة سواء عن طريق النقل البحري أو الملاحة النهرية خاصة مع إنشاء ميناء نهري آنذاك لنقل السلع عبر سبو طيلة السنة من القنيطرة إلى فاس في 1913 أو عبر النقل السككي بإنشاء الخط السككي فاس، طنجة في 1915



سيدي قاسم

يعود تأسيس مدينة سيدي قاسم إلى القرن الثامن عشر ببناء ضريح دفينهم سيدي قاسم بوعسرية على الضفة اليسرى لواد الرضيم في مدخل باب تيسرة. ومن هنا بدأت تتشكل النواة الأولى للتجمع السكاني لهذه المدينة. تعززت هذه النشأة بإقدام السلطان مولاي إسماعيل (1672-1727م) ببناء قصبة البواخر قرب ضريح سيدي قاسم بوعسرية حيث استوطن هناك

خمسون (50) جنديا من عبيد البخاري. توجد المدينة حاليا بالمنطقة المعروفة بظهر الشماخ. وقد ذهب البعض إلى ذكر سبب هذه التسمية نسبة لأبي جرير الشماخ ذلك الأموي الذي دس السم لإدريس الأزهر لما هرب من زرهون ووصل جبل عين بودري.

وسيدي قاسم، هي مدينة البترول كما يسميها بعض الاقتصاديين لأنها تحتوي على معمل تكرير البترول بعدما تم تأسيس الشركة الشريفة للبترول في 29 أبريل عام 1929، الأمر الذي جعل سلطات الحماية تغير اسمها العربي هو سيدي قاسم إلى اسم بوئي جو Petit Jeau نسبة إلى أحد الضباط الفرنسيين حين تم تأسيس ثكنة عسكرية انطلاقا من عام 1914 بعدما اكتشف الفرنسيون البترول في جبال سلفات ومنطقة عين الحمراء عام 1923. و مع إحداث خط السكة الحديدية الرابط بين الرباط و فاس سنة 1923 و خط طنجة فاس سنة 1927 م بدأت المدينة تلعب دورا مهما في المجال الإقتصادي. و في 29 أبريل 1929 تم تأسيس الشركة الشريفة للبترول التي أعطت دفعة سريعة للتطور الحضري بكل أبعاده للمدينة. و بعد حصول المغرب على الإستقلال سنة 1956 أعطت الحكومة المغربية أمرها تغيير بعض أسماء المدن من الفرنسية إلى الغريبة حيث أصبحت تعرف بمدينة سيدي قاسم نسبة للولي الصالح سيدي قاسم بوعسرية.

المحور السابع: التنمية الجهوية بمنطقة الغرب والموروث التاريخي والثقافي.

تعتمد المخططات الاقتصادية الجهوية والوطنية على استغلال الموارد الطبيعية وتوظيف التراكمات التاريخية، وتشكل المواقع الأثرية، إحدى الرافعات الرئيسية التي تعطي لكل الراغبين في المساهمة في التنمية إمكانية توظيفها عبر خلق "مقاوالات نفعية" تؤمن دخلا قارا. وتقدم الجامعة أرضية معرفية لهذا "المنتوج" من خلال التعريف بالمواقع الأثرية للمنطقة، وكذا تأهيل الطالب الجامعي لإحداث مقابلة خاصة. يبقى على الراغب النبیه أن يوظف مكاسبه الجامعية من أجل تحقيق ذاته عبر خلق مشروع تنموي يتخذ من المواقع الأثرية مطية.

إن التفكير في مشروع يسعى إلى تخويل المواسم القبلية والدينية وظائف تنموية تستجيب للسياقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية الجارية، أمر يبدو في غاية التركيب والتعقيد .. من حيث إن ذلك يستدعي مشاريع محلية وقطاعية للتنمية متوافق مع مخططات واستراتيجيات وطنية كبرى توجه وتؤطر مثل هذه المشاريع، والا بقيت مجرد "عمليات بدون عمق وامتداد يضمنان نجاعتها. والحال أننا لا نلمس بقوة ما يفيد وجود مثل هذه الاستراتيجيات، وإن كانت بعض المؤشرات نتجه نحو تحقيق مكاسب تنموية (مؤشرات التنمية البشرية مثلا) IDH وأخرى تقيد بوجود مخططات ذات قيمة اقتصادية، خضراء (الفلاحة) وزرقاء (الصيد البحري)، إلا أن انعكاساتها الاجتماعية لا تبدو مضمونة.

1 - المواقع التاريخية والأثرية : تراث حضاري "غرباوي"

تعتبر منطقة الغرب أغنى جهات المغرب بالمواقع الأثرية والتاريخية والسياحية والطبيعية. وهي متنوعة وممتدة في الزمان من الفترة القديمة إلى الفترة المعاصرة. وتحضن الجهة أهم مواقع المراكز الحضرية التي شكلت النواة الأولى لظاهرة التمدن بشمال إفريقيا. تزخر بأديها ببنائيات قروية ذات طابع حضري إلى جانب البنايات القروية المحلية.

ما يثير الانتباه في توزيع هذه المواقع الأثرية أنها منتشرة على مجموع التراب الغرباوي ولم تتركز في منطقة محددة، مما يدل على استغلال الإنسان لكل المجال الذي يتوفر على مؤهلات طبيعية تساهم في الانتشار لا التكتل. كما أن هذه المواقع الأثرية تغطي كل الحقب التاريخية من الفترة القديمة والوسطية والحديثة والمعاصرة، وهي بذلك تدل على تعاقب الاستغلال وقابلية المنطقة لاستقبال المجموعات البشرية التي توافدت عليها المنطقة منذ الفترة القديمة إلى الآن.

تشمل هذه المواقع الأثرية مدن مثل بناسا وقلاع عسكرية مثل تاموسيدا إلى جانب منازل حضرية وقروية. كما تتوفر المنطقة على آثار لمواقع حربية أو أحداث تاريخية لا تزال بعض الآثار بارزة وتتناقل أحداها الساكنة المحلية. إلى جانب هذه المواقع تتوفر المنطقة أيضا على معالم تاريخية من قبيل القصبات والمعسكرات والفناطر ومجموعة من البنايات التاريخية التي تشهد على مجد تاريخي عرفته المنطقة عبر تاريخها. أخيرا فإن المنطقة لها آثار مزارات وأضرحة تدل على تعايش الديانات بالمنطقة بالإضافة إلى مساجد وكنائس وبيع، مما يؤكد على أن المنطقة استطاعت أن تمتص المجموعات البشرية وتعايش فيها كل المعتقدات الدينية والثقافية.

تعطي دراسة المواقع الأثرية بمنطقة الغرب إمكانية الوقوف على أهمية هذه الآثار التي تؤرخ لفترات غابرة في التاريخ، وتشهد على مدى النعم التي تنعم بها منطقة الغرب بدءا بموقعها الجغرافي إلى الشواهد الأثرية. مما يؤكد على أهمية الدراسة والتعريف والتجسيس والمحافظة والاستغلال للمواقع الأثرية بمنطقة الغرب. فهي تراث تاريخي إنساني تحتضنه منطقة الغرب، التي على مؤسساتها استغلال هذا التراث الأثري.

إن ما يدل على أن هذا التراث عالمي هو مساهمة كل شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط في هذا التراث. بدءا من الأمازيغ والقرطاجيين والرومان والعرب والأوروبيين حتى الأمريكيين. كان لهذا التعاقب أن انصهرت كل المساهمات في مجال جغرافي، هو منطقة الغرب. وما توالي نزوح القبائل المغربية إلى المنطقة واستقرار المجموعات البشرية المتنوعة بها، إلا دليل على جاذبيتها وأهميتها.

يكنم "الطابع الغرباوي" للمواقع الأثرية أولا في تبني هذه المواقع واحتضانها من قبل المهتمين لا تنسيبها إلى الحضارات الأخرى التي بصمت فترتها بالموقع الأثري. إذ أن بناسا هو موقع موري قبل أن تتحول إلى مستوطنة رومانية. كما أن القنيطرة، كانت محلة مخزنية مغربية قبل أن يؤسس الجنرال اليوطي مدينة بور ليوطي. ومن ثم، فإن إعادة التربي "الغرباوي" للمواقع الأثرية هو مسؤولية كل من المواطنين والمسؤولين، كل من موقعه، من أجل استغلال التراث الأثري في التنمية المحلية.

2 - الجامعة وتأهيل السياحة العلمية والثقافية

تُفيد السياحة "حركة الأفراد والجماعات خارج الحدود السياسية للدولة التي يعيشون فيها لفترة تزيد عن أربعة وعشرين ساعة وتقل عن عام واحد. وهي ظاهرة طبيعية أوجدها العصر لحاجة الإنسان إليها ورغبته في إعادة تكوين الذات عبر مجموعة العلاقات البشرية والطبيعية التي تنتج عن السياحة". فقد أصبح ينظر للسياحة في عديد من الدول وخاصة في الدول النامية على أنها وسيلة هامة من وسائل الاستثمار، خاصة أن هناك تحولا كبيرا في المسارات السياحية نحو الدول النامية التي أخذت تناقش الدول المتقدمة في الجذب السياحي. فهي مصدر دخل للعمالات الصعبة، مما يساهم في ميزان الدولة. ودعم الاقتصاد الوطني مثل اليونان والمكسيك اللتين اعتمدتا على السياحة في تخفيف العجز في ميزان المدفوعات. كما أنها تساهم في تشغيل اليد العاملة بكافة مستوياتها من مترجمين للسياح إلى الخدمات الدنيا، مما يساهم في التنمية والاستثمار.

إن منطقة الغرب تتوفر على أرضية خصبة لمشاريع سياحية ثقافية. فمن الضروريات لبناء هذه المشاريع توفر إمكانيات وسهولة الوصول لمناطق الجذب السياحي. ثم توفر الخدمات مثل المياه والنقل والمواصلات والاتصالات السلكية واللاسلكية. وهي عناصر متوفرة بمنطقة الغرب غير أنها تفتقد إلى أرضية الاستغلال والاستثمار من فنادق ومطاعم وغيرها.

تمكن المواقع الأثرية بالمنطقة من تقديم خدمات سياحية يمكن أن تميز فيها بين : السياحة الترفيهية : ويقصد بها استثمار أوقات الفراغ بعيدا عن العمل ومسئولياته في السياحة من أجل المتعة والراحة. وقد يطلق عليها سياحة وقت الفراغ : وهي أكثر أنواع السياحة انتشارا في العالم لوجودها في جميع أماكن السياحة، ولها هدف عام هو قضاء العطلات والحصول على الإشباع النفسي والعقلي. الخ. وهي غالبا ما تكون داخلية تستقطب الشواطئ والغابات والمناظر الطبيعية. وتغيب عنها المواقع الأثرية، مما يشكل نقصا حادا في المنتج السياحي الداخلي، ومنطقة الغرب مؤهلة من حيث مواقعها لهذا الصنف من السياحة الترفيهية.

السياحة الثقافية، هدفها اكتساب المعلومات والحصول على ثقافة واسعة ولها منافع عديدة تتمثل في إقامة المعارض والمتاحف والأسواق والمعابد والمناسبات الثقافية والأماكن الأثرية وغيرها مما يكسب ثقافة جديدة تضاف إلى المعرفة. يرمي انتقال السائح إلى هذه المواقع التعرف على التراث التاريخي للمنطقة. وتنشيط هذه السياحة في معظم بلدان العالم المتقدمة والنامية بل أنها تعتبر من الرافعات الأساسية في اقتصاد مجموعة من الدول مثل إسبانيا واليونان ومصر والميكسيك.

وأخيرا، تهدف السياحة التاريخية إلى التعريف على آثار الشعوب وحضارتها، حيث يقوم السائح بزيارة المواقع الأثرية والمتاحف. ويحضر المعارض المتنوعة. وتجذب هذه المواقع الزائرين من داخل الدولة وخارجها مثل البتراء بالأردن والأهرامات بمصر وسور الصين العظيم الذي يمتد لمسافة 1500 ميل. وفي المغرب لا يزال موقع ويلي الأثري يتصدر الصدارة بالنسبة للمواقع الأثرية بالمغرب التي تجذب كل من السياحة العلمية والثقافية.

تعطي المواقع الأثرية بمنطقة الغرب سواء منها الحضرية مثل موقع بناصا وموقع تاموسيدا والمواقع القروية والقلاع العسكرية والمواقع التاريخية أرضية خصبة لتنمية السياحة المعرفية. ويبقى على كل الفاعلين والمهتمين بلورة مشاريع معرفية توظف هذه الاستثمارات التي تساهم بشكل فعال في التنمية الجهوية عبر توظيف المواقع الأثرية.

3 - التراث الثقافي والتربية على المواطنة الجهوية.

يشكل التراث الثقافي أساس التنمية الجهوية أو المحلية، باعتبار أن هذه الأخيرة عملية تنطلق من الداخل ولها أربعة مقومات تتمثل في : النمو والتقدم والاعتماد على الذات والاستدامة. يشكل النمو العنصر الأساسي الأول، وهو مادي وكعي يتمثل في تطور الثروات وتراكمه ونمو الإنتاج المادي واللامادي وللاقتصاد بفضي حتما إلى تغيير نوعي وهيكل على المستوى المادي والذهني يتمثل في التحديث والحداثة من خلال التحسن النوعي لظروف الحياة وإطار العيش. يرتبط هذا التطور النوعي ويتلزم مع الاعتماد على الذات والاستقلالية الذاتية، التدريجية والنسبية، والتي تضمن بدورها الاستدامة من حيث النسق والدينامية والاتجاه والتناج وهو ما نسميه اليوم " التنمية المستدامة".

فالتنمية المحلية تستوجب وتتجاوز النمو المادي والمرافق والخدمات ولا تقتصر على هذين المقومين الأساسيين لتتعدى إلى ما هو هيكلي وبنوي أي النهوض بالجهة أو بالمنطقة من الداخل وجعلها تقوم بدور فعال على المستوى الوطني بشكل متكافئ مع الجهات الأخرى لتسهم في صيرورة البلاد والوطن ولا يتم ذلك إلا من خلال تمكين الجهة من آليات وامكانيات الاعتماد على الذات تبعا لإمكاناتها وخصوصياتها وموقعاتها وتمكين الجهة من مقومات الاستقلالية الذاتية والاستدامة. ولا تقتصر التنمية الجهوية على خلق مواطن شغل أو بعث بعض المشاريع أو المرافق وتمثل كلها أركان أساسية متلازمة. فهي تتمثل أساسا في نفس الوقت في توفير الشغل وإنشاء التجهيزات الأساسية والاقتصادية وبعث المرافق الاجتماعية.

تنطلق هذه التنمية المحلية من توظيف الخصوصيات الطبيعية والتراث والثقافية كمؤهلات لتطوير السياحة المحلية والتربية على المواطنة والمحافظة على الهوية المحلية، الأمر الذي دفع بالعديد من الدول إلى رد الاعتبار لتراثها المادي واللامادي والحفاظ عليه من خلال إنشاء العديد من الهيئات والمؤسسات الراعية للموروث الحضاري المادي وغير المادي من قبيل إحداث

مراكز الأبحاث والدراسات؛

متاحف التراث المادية؛

نشر المطبوعات والدوريات لتنشيط الوعي بأهمية التراث؛

إحداث برامج تربية في المدارس تهتم بالموروث التاريخي والتراث المحلي.

إن إشكالية تمييز التراث تقتضي وضع استراتيجية تعتمد على إحداث مراكز لاقتصاد التراث في المجالات المعنية وذلك وفق المميزات والخصائص التي يتميز بها المجال، وللوصول إلى ذلك لابد من وضع خطة محكمة نستطيع من خلالها تحديد نوع التراث والأساليب المعتمدة لتنميته وبالتالي تحقيق التنمية المنشودة.

إن حماية التراث المادي و اللامادي يشكل هدفا استراتيجيا يجب أن تعمل على تحقيقه كافة الهيئات والمنظمات المدنية والمؤسسات الجامعية التي لها علاقة ما بالتراث، ليس فقط لأهمية التراث المحلي الغرناوي كجزء هام في تشكيل صورة التراث الإنساني بشمال إفريقيا فقط، بل ولأنه يشكل الهوية والذاكرة الجماعية للغرناوين على مدار التاريخ و يساهم في التنمية الجهوية. إن الاهتمام بالتراث من شأنه أي ينهي البرامج السياحية المحلية، وفي نفس الآن يقدم أرضية تاريخية لتربية الأجيال

المتعاقبة وتوظيف الموروث التاريخي والثقافي في صقل المواطنة الجهوية القائمة على الاعتراز بالجذور التاريخية والافتخار بالحمولة الثقافية.

تتطلب مشاريع التنمية الجهوية المرتبطة بالموروث التاريخي والثقافي :

- ❖ الإيمان بخلق المقاولات الخاصة، كرافعة أساسية في التنمية البشرية والجهوية؛
- ❖ البحث عن التمويل من الهيئات الدولية المعنية بالحفاظ على التراث الثقافي والتاريخي والطبيعي؛
- ❖ إنشاء مراكز تاريخية وتراثية للمحافظة على الذاكرة الجماعية وتثمين مختلف الموارد النادرة بمنطقة الغرب؛
- ❖ القيام بتنظيم ورشات في المؤسسات التعليمية بتنسيق مع الهيئات والمؤسسات الدولية حول التراث؛
- ❖ إنشاء جمعيات قطاعية تهتم بكل نوع من أنواع التراث؛
- ❖ تأسيس هيئة خاصة بالمواقع التاريخية والأثرية حول المواقع تتولى مهمة التعريف والدفاع عنها ؛
- ❖ استغلال وسائل التواصل الحديثة من أجل التسويق الجيد لتراثنا الجماعي وطنيا وعالميا.

إن التربية على المواطنة تنطلق من الوعي بالانتماء إلى المنطقة التي يعيش فيها الفرد. كما أنها تتطلب إدراك الخصوصيات الطبيعية والتاريخية والثقافية للمنطقة والتي من شأنها أن تساهم في إنماء الشعور بالغيرة على الموروث الثقافي والإرث التاريخي الذي هو أساس المواطنة. وعليه تبقى التربية والتكوين والحسيس والتذكير من الوسائل الضرورية في غرس روح المواطنة لدى الناشئة لتمنوا مع تراكم المعرفة الجامعية وتتحول إلى أرضية خصبة لإحداث مشاريع تنموية خاصة.

خاتمة

تسعى الدراسة التاريخية والأركيولوجية للمواقع الأثرية بمنطقة الغرب في إدراك أهمية موروها الحضاري المادي الذي يختزل خصوصياتها الثقافية المتعاقبة عبر الزمن، وهو بمثابة المحك الأنصع لاستظهار مدى تجدها وتلاقحها مع ثقافات الشعوب الأخرى. ومنطقة الغرب، بموقعها الاستراتيجي المتميز، كنقطة التقاء، محورها عنصر الأمازيغية والعربية والأفريقية والأوربية جعل من مجالها الحضري والقروي ميدانا خصبا لاحتضان تراكمات تراث عمراي مادي، فرضتها احتياجاتها التلقائية أحيانا، والاكتساحات الأجنبية تارة أخرى، مما أفرز تراثا ماديا متعدد الأصول والحقب والأشكال، لا يعوق استثماره بالصورة المثلى، راهنا، إلا ضبطه والتعريف به من جهة، ومن جهة أخرى، دراسته وتأهيله وصيانتة، من أجل تسويقه "كمنتوج" سياحي ثقافي وتاريخي.

وتعتبر بنايات المواقع التاريخية والأركيولوجية بمنطقة الغرب معالم تاريخية وتراثا عمرانيا وإرثا حضاريا، يختزل العلاقات بين ضفتي حوض البحر الأبيض المتوسط، ويكشف عن التلاحق والتواصل بين مختلف الفترات التاريخية والتواصل والتوارث بين أهم الحضارات التي تعاقبت على بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط.

ويبقى على الدارسين والمهتمين توجيه مزيد من المجهودات للتاريخ الجهوي الذي يُعطي إمكانية الوعي بالذات في إطارها المجالي والزمني والخوض في غمار الإجابة عن :

من أنا ؟

لماذا أنا هنا بهذه المنطقة ؟

كيف لي، "أنا الطالب بمسلك التاريخ والحضارة، بجامعة ابن طفيل، القنيطرة" أن أوظف المعرفة التاريخ التي إكتسبتها، والمواقع الأثرية التي تزخر بها منطقة الغرب في تحقيق الذات عبر خلق مشاريع ذاتية تنموية في إطار مؤسساتي ؟

خاص بالطالب (ة) :

.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....

Nom.....	YOUSSEF.....	الاسم الشخصي.....	يوسف.....
Prénom.....	الاسم العائلي.....
Numéro d'Apogée.....	رقم الأبوجي.....

